

صفحات من تاريخ الباحثة (غامد وزهران)
السياسي والحضاري عبر عصور التاريخ الإسلامي
(ق ١ - ق ١٥هـ / ق ٧ - ق ٢١ م) (*)

أ.د. غيثان بن علي بن جريس



(*) دراسة منشورة في كتاب: منطقة الباحثة: دراسات، وإضافات، وتعليقات (ق ١ - ق ١٥هـ / ق ٧ - ق ٢١ م)، لغيثان بن جريس، (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م)، (الجزء الأول)، ص ص ١٢ - ٧٦.

الدراسة الأولى

صفحات من تاريخ الباحة (غامد وزهران) السياسي
والحضاري عبر عصور التاريخ الإسلامي

(ق ١٥هـ - ق ١٥هـ / ق ٧م - ق ٢١م) :

بقلم : أ . د . غيثان بن علي بن جريس (*)

(*) نشرت هذه الدراسة في كتاب :

القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة ، وعسير، ونجران) ، ط ١

(١٤٣٥هـ ، ٢٠١٤م) - (الجزء السابع)

الرياض : مطابع الحميضي ، ص ص ١١١ - ١٨٦

الدراسة الأولى : صفحات من تاريخ الباحة (غامد وزهران)
السياسي والحضاري عبر عصور التاريخ الإسلامي (ق١هـ-ق١٥هـ /
ق٧م-ق٢١م):

م	الموضوع	الصفحة
١-	أولاً : مدخل	١٥
٢-	ثانياً: صفحات من تاريخ الباحة السياسي (ق١-ق١٥هـ / ق٧م-ق٢١م)	١٧
	١- وقفة مع تاريخ الباحة (ق١-ق١٠هـ/ق٧م-ق١٦م)	١٧
	٢- خلاصة تاريخ الباحة الحديث (ق١٠-ق١٥هـ/ق١٦م-ق٢١م)	٢٣
	ثالثاً: صفحات من تاريخ الباحة الحضاري (ق١٣-١٤هـ / ١٩-٢٠م)	٣٨
	١- صور من الحياة الاجتماعية	٣٩
	٢- صور من الحياة الاقتصادية	٥٦
	٣- صور من الحياة العلمية والثقافية	٦٦
٤-	رابعاً : آراء وتوصيات	٧٥

أولاً : مدخل :

المقصود بمصطلح (الباحة) في العنوان الرئيسي^(١)، أي منطقة الباحة في عصرنا الحاضر^(٢)، والاسم الحقيقي التاريخي لهذه الناحية هو (بلاد غامد وزهران)^(٣)، وهاتان القبيلتان أزديتان ويعود نسبهما إلى القبائل اليمانية القحطانية^(٤).

والدارس تاريخ وحضارة ديار غامد وزهران في عصور ما قبل الإسلام، يجد صعوبة كبيرة في الخروج بصورة شبه واضحة عن هذه الأوطان التهامية والسروية، ومن خلال تجوالنا في هذه البلاد لفترة تزيد على ثلاثة عقود^(٥)، ثم قراءتنا ودراستنا عنها استطعنا الخروج ببعض للمحات عن أراضي غامد وزهران قبل الإسلام، وهي على النحو التالي :

١ . الاستيطان البشري في بلاد غامد وزهران قديماً وبعوداً إلى العصور الحجرية القديمة والحديثة، واستمر عبر التاريخ القديم حتى ظهور الإسلام، والدليل على

(١) الباحة : اسم حديث أطلق على منطقة الباحة في العصر الحديث والمعاصر . ومدينة الباحة هي حاضرة منطقة الباحة الرئيسية. للمزيد انظر تفصيلات أكثر: غيثان بن جريس. دراسات في تاريخ تهامة والسراة (ق ١٠هـ / ٧م - ١٦م) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٢هـ / ٢٠١١م)، ج ٢، ص ١٢٢ وما بعدها، انظر: موسوعة المملكة العربية السعودية (المحور التاريخي) (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤٢٨هـ) مج (١٦)، ص ١٣٥ وما بعدها .

(٢) منطقة الباحة: إحدى مناطق المملكة العربية السعودية، بل ربما تكون أصغرها مساحة، وتقع ضمن المناطق الجنوبية السعودية، وسط بلاد تهامة والسراة، ويحدها من الشرق محافظتا بيشة وبلقرن التابعتان إدارياً لإمارة منطقة عسير، وأيضاً أجزاء من محافظة رنية التابعة إدارياً لإمارة منطقة مكة المكرمة، ومن الغرب محافظات الطائف والليث والقنفذة، وجميعها تتبع إدارياً لإمارة منطقة مكة المكرمة، ومن الجنوب أجزاء من محافظات بلقرن، والعرضيات، والقنفذة ومن الشمال أجزاء من محافظات الطائف وتربة ورنية. وامتدادها من الشرق إلى الغرب حوالي (١٥٠.١٢٠ كم)، ومن الشمال إلى الجنوب حوالي (١٧٠.١٤٠ كم)، وتضاريسها تتكون من مرتفعات السروات التي يصل ارتفاع بعضها إلى (٣٠٠٠م) فوق سطح البحر وربما أكثر، وغرب هذه المرتفعات المنحدرات الغربية المعروفة باسم (الأصدار) ، وغربها أراض سهلية تتصل بالخبث التهامي الواقع إلى الشرق من ساحل البحر الأحمر، ومن الجهات الشرقية لهذه المنطقة تأخذ في الانحدار التدريجي نحو الشرق حتى تتصل بالصحراء. المصدر: مشاهدات الباحث وتجواله في منطقة الباحث في الفترة الممتدة (٢٩/١١/٩١١/١٢/١٤٢٣هـ) . وللمزيد انظر: غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٤هـ/٢٠١٢م)، ج ٥، ص ٢١. ٩١. ٩٢. ٣١٥ .

(٣) قبائل غامد وزهران من القبائل العربية العريقة، ولها إسهامات تاريخية وحضارية قبل الإسلام وبعده . والذاهب في منطقة الباحة اليوم يجد من يقول إن هذه المنطقة تشتمل على ثلاث قبائل رئيسية هي : (غامد، وزهران، وبني عمر)، وهناك من يقصر المنطقة على قبيلتي (غامد وزهران) ويترك قبيلة بني عمر ضمن قبيلة زهران . وليس هذا مجال حديثنا، لكن في اعتقادنا أن هناك ثلاث قبائل كبرى تعيش في المنطقة، وهي (زهران، وغامد، وبني عمر) . للمزيد انظر: الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب . تحقيق محمد علي الأكواع (صنعاء : مكتبة الإرشاد، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص ٢٦٠ وما بعدها، حمد الجاسر . في سرة غامد وزهران (الرياض: دار اليمامة للطباعة والنشر، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ص ٢٠٦ وما بعدها، انظر أيضاً موسوعة المملكة العربية السعودية، مج (١٦)، ص ١١٥ وما بعدها .

(٤) المصادر والمراجع نفسها، وللمزيد انظر: غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥، ص ٢١ وما بعدها.

(٥) تجوالنا خلال هذه العقود شمل جميع منطقة تهامة والسراة الممتدة من جازان ونجران جنوباً إلى الطائف ومكة المكرمة شمالاً .

ذلك أن بعض الدراسات الأثرية من نقوش ورسومات صخرية أثبتت ما ذهبنا إليه^(١)، ثم إن تنوع تضاريس ومناخ هذه الأوطان، وجودة موقعها الجغرافي في جزيرة العرب، وتحديدًا بين الحجاز واليمن تعد مؤهلات جيدة لاستيطانها والعيش فيها^(٢).

٢. ظهور ممالك اليمن الرئيسية قبل الإسلام مثل: سبأ وحمير وغيرها ومد نفوذها إلى نواح عديدة في بلاد تهامة والسراة، وكذلك هيمنة القبيلة على أرض غامد وزهران، فكانت صاحبة الحل والعقد في أوطانها، ثم اتصال الديار الغامدية والزهرانية بأرض الحجاز وبخاصة مكة المكرمة، كل هذه أيضاً مؤهلات تاريخية وحضارية تؤكد وجود تاريخ وتعايش سكاني في هذه البلاد المعنية .

٣. من خلال جولتنا في تهامة والسراة وقفنا على آثار قديمة جداً وأغلبها يعود إلى عصور ما قبل الإسلام مثل: أجزاء من طريق البخور^(٣)، وبعض أماكن المعادن والتعدين ونماذج من الآبار والكهوف والمدرجات الزراعية، بالإضافة إلى رسومات صخرية ونقوش وآثار متناثرة في نواح عديدة من المنطقة الباحوية^(٤).

٤. في أثناء اطلاعنا على عشرات المصادر الإسلامية المبكرة، وجدنا أنها تحوي بعض التفاصيل العلمية عن تاريخ وحضارة الغامديين والزهرانيين قبل الإسلام، مثل الإشارة إلى أنسابهم، وبعض من صراعاتهم وحروبهم مع بعضهم البعض، أو مع جيرانهم، أو مع بعض القوى أو القبائل العربية القديمة، مثل: قريش، وثقيف، وختعم، وبجيلة، ومذحج، وتميم وغيرهم^(٥). كما أن هناك معلومات لا بأس بها عن عقائدهم وبعض أصنامهم^(٦) وشعرائهم^(٧)، وأحياناً صلاتهم الاجتماعية والاقتصادية فيما

(١) انظر: موسوعة المملكة العربية السعودية، مج (١٦)، ص ١١٣-١٢٢، ١٧٢-١٨٦ .

(٢) المرجع نفسه، بالإضافة إلى مشاهدات الباحث في منطقة الباحة في نهاية عام (١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م) .

(٣) طريق البخور من الطرق الرئيسية في جزيرة العرب قبل الإسلام، وما زالت أجزاء منه ماثلة للعيان في بعض أجزاء من منطقة الباحة الشرقية، وقد سلكه الحجاج والتجار والجنود وغيرهم في عصور الدولة الإسلامية . مشاهدات الباحث لأجزاء من هذا الطريق في نهاية عام (١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م) .

(٤) نأمل من جامعة وإمارة الباحة أن تتعاونوا فيما بينهما وتؤسسا كلية أو قسماً أو مركزاً للبحث العلمي يتخصص بدراسة التاريخ القديم والآثار والنقوش والرسومات الصخرية الخاصة ببلاد غامد وزهران أو بلاد تهامة والسراة، ومن يقوم بدعم وخدمة هذا المشروع فسوف يسدي لأهل البلاد بل لطلاب العلم معروفاً كبيراً .

(٥) اطلعنا على عدد من كتب التراث التي تذكر دور غامد وزهران في بعض الأيام أو الحروب السابقة للإسلام. وقبائل تهامة والسراة تستحق أن يخرج عنها دراسات علمية في هذا الباب .

(٦) من الأصنام التي كانت مشهورة في بلاد غامد وزهران أو قريبة منها أوثان: ذو الخلصة، وذو الكفين وغيرهما .

(٧) من أعلام وشعراء غامد وزهران قبل الإسلام، الطفيل بن عمرو الدوسي، وسواد بن قارب الدوسي، والحارث بن الطفيل الدوسي، والشنفرى، وهناك من قال إنه ينتسب في رجال الحجر، وأبوأزهر الدوسي، وحمة بن الحارث الدوسي، وعمرو بن حممة الدوسي. ونقول إن دراسة الحياة الأدبية وشعراء وأعلام غامد وزهران قبل الإسلام موضوع جيد ويستحق أن يكون عنواناً لرسالة أو كتاب علمي .

بينهم بين أو مع بعض القبائل الأخرى في الحجاز واليمن وتهامة وغيرها^(١).

وفي المحاور التالية سوف نشير إلى بعض الصفحات التاريخية والحضارية لبلاد غامد وزهران (منطقة الباحة) خلال العصور الإسلامية المختلفة منذ فجر الإسلام حتى وقتنا الحاضر، ومن هذه الصفحات ما يركز على التاريخ السياسي، وأخرى على بعض الصور الحضارية في العصر الحديث^(٢).

ثانياً : صفحات من تاريخ الباحة (غامد وزهران) السياسي (ق ١٥هـ - ق ١٥هـ / ق ٧م - ق ٢١م) :

١- وقفة مع تاريخ الباحة (غامد وزهران (ق ١٠هـ - ق ٧هـ / ق ١٦م) .

بلاد الباحة (غامد وزهران) جزء بسيط من بلاد تهامة والسراة^(٣)، وهذه النواحي يشوب تاريخها القديم والإسلامي المبكر والوسيط الكثير من الغموض لعدم وجود مصادر موثوقة تشرح لنا أحداثها السياسية وتطورها الحضاري، وهذا لا يعني أنه ليس لها تاريخ، فأرضها عامرة بخيراتها، مأهولة بسكانها، لكن المؤرخين الأوائل لم يرصدوا تاريخها، كما فعلوا مع بعض الحواضر الإسلامية في الجزيرة العربية، أو الأمصار الإسلامية الأخرى^(٤). ووعورة جغرافيتها، وصعوبة وشدة بأس أهلها من الأسباب الرئيسية التي جعلتها في منأى عن المؤرخين والرحالة وأصحاب القلم فلم يرتادوها ولم يسجلوا تاريخها لعدم وصولهم إليها، وإن ذكرت في بعض المدونات التاريخية المبكرة، فذلك عن طريق الرواة أو بعض السرويين والتهاميين الذين خرجوا من أوطانهم إلى أصقاع العالم الإسلامي، ومن ثم رووا ونقلوا بعض الأحداث والأنساب والأخبار عن بلادهم إلى بعض المصنفين ومدوني التراث الإسلامي، ومن ثم وصلتنا بعض الشذرات المختصرة والمنوعة عن هذه البلاد العربية الأصيلة^(٥).

(١) دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في غامد وزهران، وصلاتهم الاجتماعية والاقتصادية مع الحجاز من العناوين الجديدة في بابها، والجديرة بالبحث والدراسة من قبل المؤرخين والآثارين، وهذه مسؤوليات الجامعات وأقسامها العلمية والأكاديمية المتخصصة.

(٢) لا ندعي الكمال فيما سوف ندون، ولكن نرجو أن نلفت الأنظار إلى بعض القضايا العلمية المهمة، ونفتح أبواباً يدخل من خلالها الباحثون والباحثون الجادون الذين يصوبون ما أخطأنا فيه، أو يستكملون ما لم نستطيع أن نأتي به. ونسأل الله أن يصلح قلوبنا ويوفقنا جميعاً إلى كل خير.

(٣) بلاد تهامة والسراة، الديار الواقعة بين اليمن والحجاز، وقد أخرجنا عنها العديد من الدراسات المختلفة في عناوينها وأزماتها.

(٤) مثل مدن الطائف، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة في الحجاز، وصنعاء وزبيد وصعدة في اليمن. أما الحواضر الإسلامية خارج الجزيرة العربية فهي كثيرة في الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب والأندلس وغيرها من بلدان العالم الإسلامي.

(٥) لنا بحث نعمل عليه منذ زمن، وعنوانه تقريباً : بلاد تهامة والسراة في كتب التراث الإسلامي، ونأمل أن يرى النور قريباً (بإذن الله تعالى) .

وحديثنا عن تاريخ وحضارة الباحة (غامد وزهران) منذ القرن الهجري الأول (السيابع الميلادي) إلى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) لن يكون جديداً أو مطولاً بقدر ما هو ذكر لعدد من بحوثنا أو تحقيقاتنا المطبوعة عن تاريخ منطقة الباحة خلال العصر الإسلامي المبكر والوسيط^(١)، التي نشرت خلال العقود الماضية وهي على النحو التالي:

١. بلاد تهامة والسراة منذ فجر الإسلام حتى السنة الثانية عشرة للهجرة "دراسة منشورة في المجلة التاريخية المصرية، مج (٢٨) السنة (١٩٩١-١٩٩٥ م)، ص ٩١-٩٥، ثم أضيف عليها معلومات جديدة وأعيد نشرها في مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي. عدد (٣١) (رمضان ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٧-٤٧، وأخيراً نشر هذا البحث أيضاً في كتابنا الموسوم ب: دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيط (ق١-ق١٠هـ/ق٧-ق١٦م) (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). الجزء الأول، ص ٥٤-٢١.

٢. "دور أهل تهامة والسراة في ميادين الفتوح الإسلامية المبكرة في صدر الإسلام". قدمت هذه الدراسة محاضرة على مسرح كلية التربية- فرع جامعة الملك سعود بأبها، ضمن أنشطة الجامعة خلال الفصل الدراسي الثاني من العام الجامعي (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) يوم الاثنين الموافق (١٩/١٠/١٤١٥هـ)، ثم نشرت كاملة في كتابنا الأنف الذكر، والموسوم ب: دراسات في تاريخ تهامة والسراة، الجزء الأول، ص ٥٥-٩١.

٣. "بلاد السراة من خلال كتاب: صفة جزيرة العرب للهمداني". دراسة منشورة في مجلة الدارة، العدد (٣) السنة (١٩) (ربيع الآخر، الجمدان / ١٤١٤هـ)، ص ٧٦-١١١، ثم أعيد نشرها مع بعض الإضافات في مجلة بيادر الصادرة عن نادي أبها الأدبي، العدد (٢٧) جمادى الأولى (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص ١٤-٤٤، ثم نشرت أيضاً في كتاب: دراسات في تاريخ تهامة والسراة، الجزء الأول، ص ١٢٧-١٦٤.

٤. "بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة الجغرافيون المسلمون الأوائل (ق٣هـ-٨هـ)" دراسة منشورة في مجلة المؤرخ العربي (القاهرة، مارس / ١٩٩٤م). العدد (٢) المجلد الأول، ص ٧٣-١٠٠، ثم أعيد نشرها في مجلة بيادر الصادرة عن نادي أبها الأدبي. عدد (٢٩) (المحرم / ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص ٦٣-٩٤، ثم نشرت أخيراً في كتاب: دراسات في تاريخ تهامة والسراة، الجزء الأول، ص ١٦٥-١٦٩.

٥. "الصلات الدعوية بين الرسول ﷺ وبين أهل تهامة والسراة (دراسة تاريخية)" دراسة منشورة ضمن مداولات اللقاء العلمي السادس بجمعية التاريخ والآثار بدول

(١) جميع البحوث والكتب المذكورة في هذه الصفحات منشورة إلكترونياً على موقعنا (الموقع الرسمي للأستاذ الدكتور / غيثان بن جريس)

مجلس التعاون لدول الخليج العربية، والذي عقد في دول الكويت الشقيقة من (١٢٠١١ / ربيع الأول ١٤٢٦هـ الموافق ٢٠ / ١١ / أبريل، ٢٠٠٥م)، ص ١٥٧ - ٢١١، وقد أعيد نشرها في كتابي: (١) دراسات في تاريخ إفريقيا والجزيرة العربية خلال العصور الإسلامية (جازان : نادي جازان الأدبي، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م)، ص ١٣ - ٦٤ . (٢) دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه (ق ١٠هـ / ق ٧هـ - ق ١٦م) . المسمى تاريخ الجنوب (الباحة، وعسير، وجزان، ونجران) (الرياض: مطابع الحميضي، ٢١ - ١٤٢٢هـ / ١٠ - ٢٠١١م)، الجزء الثاني، ص ٢٧ - ٩٨ .

٦. " بلاد السراة في العصر الأموي : دراسة لبعض مظاهر الحضارة " . بحث قدم ضمن أعمال الندوة العالمية الرابعة لدارسات تاريخ الجزيرة العربية . الجزيرة العربية في العصر الأموي (الأحد-الثلاثاء ٧-٩ / ١١ / ١٤٢٠هـ / ١٥.١٣ / نوفمبر / ٢٠٠٠م) ، جامعة الملك سعود، كلية الآداب . ونشر في الكتاب الرابع من دراسات الجزيرة العربية الخاص بالعصر الأموي، ص ١٤٩ - ١٦٤، ثم أعيد نشره أيضاً في كتاب، دراسات في تاريخ تهامة والسراة . الجزء الثاني، ص ٩٩ - ١٣٢ .

٧. " تاريخ منطقة الباحة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطه " . بحث منشور في موسوعة المملكة العربية السعودية (الرياض : مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤٢٨هـ) . المجلد السادس عشر، ص ١٣٣ - ١٥١، ثم أعيد نشره تحت مسمى " التطور التاريخي لمنطقة الباحة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطه " في كتاب: دراسات في تاريخ تهامة والسراة، الجزء الثاني، ص ١٣٣ - ١٩٠ .

٨. " تنبيهات حول تاريخ منطقة الباحة للدكتور جمعان عبد الكريم الغامدي " بحث منشور في كتاب: دراسات في تاريخ تهامة والسراة . الجزء الثاني، ص ١٩١ - ٢٥٠ .

٩. " الباحة (بلاد غامد وزهران) في عيون بعض الرحالين المسلمين وغير المسلمين . بحث منشور في كتابنا : القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٤هـ / ٢٠١٣م)، الجزء الخامس، ص ٢١ - ٩١ .

١٠. " صور من تاريخ منطقة الباحة الحضاري خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطه والحديثه . للدكتور جمعان عبد الكريم الغامدي " دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير) ، الجزء الخامس، ص ٩٢ - ١٥٨ .

١١. " قراءة وتصويبات في كتاب : دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه (ق ١٠هـ - ق ١٦هـ / ق ١٦هـ) . الجزء الثاني (تحديداً منطقة الباحة) للأستاذ علي بن محمد بن سدران الزهراني . دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، الجزء الخامس، ص ٢٦٩ - ٢٨٦ .

١٢. إيضاحات، وإضافات، وانتقادات، وتعليقات على جزئيات منشورة في كتاب: القول المكتوب في تاريخ الجنوب، الجزء ان " الثالث ، والخامس " . للأستاذ علي بن محمد بن سدران الزهراني . وهي دراسة منشورة في القسم الثالث من كتاب: القول المكتوب في تاريخ الجنوب . الجزء السابع، ص ١٩٠ - ٢٤١ .

وربما يقول قائل، ما هي الفائدة من إدراج عناوين هذه البحوث والدراسات تحت مبحث: الباحة (غامد وزهران) (ق١٠٠هـ/ق٧٠٠م)، ويتراءى للقارئ أنه سوف يجد تحت هذا العنوان تفصيلات تاريخية عن منطقة الباحة خلال العصر الإسلامي المبكر والوسيط، وإجابتنا عن هذا التساؤل، هي على النحو التالي:

١. إن جميع هذه الدراسات، وعددها (١٢) دراسة مطبوعة ومنشورة في أكثر من وعاء علمي تصب في تاريخ تهامة والسراة بشكل عام، وتاريخ بلاد غامد وزهران (منطقة الباحة) خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه بشكل خاص .

٢. الدراسات الست الأولى (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) تدرس جوانب تاريخية وحضارية لبلاد تهامة والسراة، ومنطقة الباحة جزء منها، خلال العشرة قرون الإسلامية الأولى^(١).

٣. الدراسات الست الأخيرة (٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢) تدور بنسبة كبيرة جداً في فلك تاريخ وحضارة منطقة الباحة (غامد وزهران) منذ فجر الإسلام إلى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

٤. ذكر هذه الدراسات وتبيان أماكن وسنوات نشرها مهم جداً لمن أراد معرفة بعض التفصيلات التاريخية والحضارية المتعلقة بمنطقة الباحة خلال العصر الإسلامي المبكر والوسيط، وللإنصاف لا ندعي إعطاء صورة كاملة وواضحة وتفصيلية عن تاريخ هذه البلاد في الزمن المذكور آنفاً، ولكننا نقول إنها تحتوي على معلومات حسنة لمن أراد الدراسة والبحث عن هذه البلاد التي تعاني غموضاً ونقصاً كبيرين في تاريخها المكتوب .

٥. وحتى نسهل على الطالب أو القارئ أو الباحث نقول إن جميع الدراسات المذكورة أعلاه أشارت إلى جزئيات من تاريخ بلاد غامد وزهران في عهد الرسول ﷺ وعصور الخلفاء الراشدين (رضوان الله عليهم)، وبني أمية وبني العباس، وإذا نظرنا إلى

(١) مازال هناك دراسات أخرى عديدة مطبوعة ومنشورة عن أوطان تهامة والسراة، ولم نوردتها في هذا القسم، ويوجد فيها بعض التفصيلات عن بلاد غامد وزهران في القرون الإسلامية المبكرة . للمزيد، انظر: غيثان ابن جريس . دراسات في تاريخ تهامة والسراة، الجزء ان الأول والثاني، ومجموع صفحات هذين الجزئين تزيد عن الألف صفحة .

نسبة حضور ذكر أهل وتاريخ بلاد غامد وزهران في الأبحاث السابقة فإن عصر الرسول (ﷺ) فاز بالنصيب الأكبر، يليه عصر الخلفاء الراشدين . أما العصران الأموي والعباسي والقرون الإسلامية الوسيطة (الثامن، والتاسع، والعاشر) للهجرة فهي أقل حظاً ونصيباً مما سبقها، بل إن تاريخ المنطقة الباحوية منذ القرن الثاني إلى العاشر الهجري يكاد يكون مغيباً في معظم كتب التراث الإسلامي. وحتى نهون على الباحث أو نساعده إذا رغب في البحث في تاريخ منطقة الباحة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة، فإننا نذكر بعض التوجيهات أو النصائح التي قد تعينه في بحثه، وتدله على الأماكن أو المصادر الرئيسية، أو الموضوعات الجديرة بالدراسة التي قد تعكس بعض الصور التاريخية لهذه الأوطان التهامية والسروية .

أ . يجب على الباحث في تاريخ هذه البلاد أن لا يحصر نفسه في فرع واحد من كتب التراث الإسلامي، فمثلاً يسعى إلى الاطلاع فقط على الكتب التاريخية البحتة العامة أو المقتصرة على موضوع محدد^(١)، وإنما الواجب البحث في معظم كتب التراث مثل: المصادر الشرعية كالقرآن وعلومه، وكتب السنن، وكتب الفقه والأموال . والمصادر اللغوية كالمعجم اللغوية، وكتب اللغة والأدب بجميع فروعها . والمصادر التاريخية الحولية، وتواريخ البلدان، والسير والتراجم والطبقات . والمصادر الجغرافية ومعجم البلدان وكتب الرحلات والمشاهدات. والكتب الموسوعية مثل: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، وصبح الأعشى للقلقشندي، ومسالك الممالك للعمري وغيرها، كما يجب الاطلاع على مصادر أخرى متنوعة مثل: كتب المعادن، والنباتات، والحيوانات، والفلك والنجوم، والأنواء وغيرها . ومن يجتهد في الحصول على معلومات من هذه المصادر فإنه بدون شك سوف يعثر على قدر لا بأس به عن تاريخ هذه الأوطان . وقد أصبحت الكثير من مصادر التراث الإسلامي مطبوعة ومحققة ومنشورة، لكن مازال هناك جزء مخطوط وربما مفقود وإذا عثر على قدر من هذه المصادر فقد يجد الباحث أحياناً ضالته المنشودة.

ب . ربما كان تاريخ منطقة الباحة من القرن الثاني إلى العاشر الهجري قليل في المصادر الآنف ذكرها ولكن بالاطلاع على تواريخ اليمن أو السروات أو الحجاز في الكتب الإسلامية التراثية فقد نجد إشارات أو مقاربات أو تشابهات إلى

(١) كتب التاريخ العامة مثل: تاريخ الأمم والملوك للطبري، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وتواريخ ابن كثير وابن خلدون وغيرهما . أما الكتب المتخصصة فمثل: تاريخ المدن والنواحي، أو تاريخ الرجال، أو التاريخ السياسي والحضاري المحدد بالزمان والمكان .

بعض الصور التاريخية الباحوية، والدارس لسكان هذه البلاد يجدهم يعيشون في أوطانهم منذ العصور القديمة وعبر عصور التاريخ الإسلامي، ومن ثم فهم أصحاب تاريخ وفكر وحضارة، وإن لم يدون في المصادر الإسلامية الأولية، والتعويل على الدراسات الأثرية مهم جداً ويجب الحرص على هذا المصدر المهم الذي يكشف لنا عن صفحات تاريخية قيمة يصعب أن نجدها في أي مصدر أو مكان آخر .

ج - هناك الكثير من الصلات النسبية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين سكان منطقة الباحة مع بعضهم البعض، ومع بعض المراكز الحضارية في بلاد تهامة والسراة، ومع أهل الحجاز وبخاصة سكان الطائف ومكة المكرمة وما حولها، وبالتالي فالباحث في تاريخ الباحة يجب عليه الاطلاع على مصادر تاريخ تلك البلدان المجاورة لعله يجد ما يوضح له بعض الجزئيات المجهولة أو الغامضة. ومن خلال اطلاعنا على بعض مصادر تاريخ الحجاز وبخاصة مكة المكرمة وجدنا أن هناك صلات سياسية وحضارية قديمة وعميقة بين الحجازيين والغامديين والزهرانيين، بل وجدنا مواطن عديدة في بلاد غامد وزهران سكانها من الحجازيين ومواقع إدارية وتجارية وغيرها في حاضرتي الطائف ومكة المكرمة وأصحابها من أهل السراة كالغامديين والزهرانيين وغيرهم .

ومن الموضوعات والعناوين الجديرة بالبحث في تاريخ منطقة الباحة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق.١-ق.١٠هـ/ق.٧-ق.١٦م) ما يلي :

١. سروات غامد وزهران وتهامتها قبيل الإسلام مباشرة تستحق العديد من الدراسات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية والأدبية .
٢. دور غامد وزهران في استقبال الدعوة الإسلامية، ثم إسهاماتهم التاريخية والحضارية في بلادهم وخارجها في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين .
٣. بلاد غامد وزهران في عصر الدولة الأموية، وموقف أهلها من الأحداث السياسية التي وقعت في نهاية عصر الخلفاء الراشدين وخلال العهد الأموي (٦٠-١٣٢هـ/٦٧٩-٧٤٩م) .
٤. تاريخ غامد وزهران خلال العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ / ٧٤٩-١٢٥٨م) . وهذا التاريخ يشمل حياة الزهرانيين والغامديين في أوطانهم، وإسهاماتهم السياسية والحضارية في أرجاء الدولة العباسية، أو أرجاء العالم الإسلامي آنذاك .
٥. أعلام غامد وزهران منذ فجر الدولة الإسلامية إلى نهاية العصر العباسي عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) .
٦. غامد وزهران (منطقة الباحة) منذ القرن (٧-١٠هـ/١٣-١٦م) (دراسة تاريخية حضارية) .

٧. الصلات التاريخية بين الحجاز وبلاد غامد وزهران خلال عشرة قرون (ق ١٠هـ / ١٦٧م) .
٨. العلاقات التاريخية والحضارية بين غامد وزهران وأهل اليمن خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه .
٩. مشاهير غامد وزهران في الطائف، أو مكة المكرمة، أو المدينة المنورة خلال العصر الإسلامية المبكر (ق ١-٣هـ / ٧ - ٩م) أو الوسيط (ق ٤-١٠هـ / ١٠-١٦م) .
١٠. دراسة لغة الغامديين والزهرانيين وفصاحتهم خلال القرون الإسلامية الأولى (ق ٢-٨هـ / ق ٨-١٤م) .

٢. خلاصة تاريخ الباحة الحديث (ق ١٠هـ / ق ١٦هـ - ق ٢١م) :

أ. تاريخ الباحة (ق ١٠هـ حتى أوائل القرن ١٣هـ / ١٦-١٩م) .

كانت منطقة الباحة (غامد وزهران) عبر عصور التاريخ الإسلامي الوسيط والحديث تخضع لنفوذ شيوخها وأعيانها، ولم تكن فعلاً تآتمر بأمر غيرهم^(١)، ونجد في بعض المصادر الحجازية أن قبائل غامد وزهران كانت على صلات جيدة بأهل الحجاز وبخاصة إمارة الأشراف في مكة المكرمة^(٢)، ففي عام (١٤٠٩هـ / ١٤٠٩م) نرى شريف مكة حسن بن عجلان (ت ١٤٢٩هـ / ١٤٢٥م) يطلب العون والمدد من قبائل السراة مثل: غامد وزهران وغيرها لصد بعض الاعتداءات المملوكية على الحجاز^(٣).

(١) هناك بعض المصادر الإسلامية المبكرة مثل : تاريخ المستبصر لابن الجاور، وناصر خسرو في كتابه (سفرنامه)، والمقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) تؤكد هيمنة القبيلة على البلاد النهامية والسروية خلال عصور إسلامية مختلفة، وهناك أيضاً مئات الوثائق الحديثة التي تذكر سطوة قبائل أهل السراة وكيف كانت صاحبة الحل والعقد في بلادها ومع جيرانها . حبذا أن يقوم أحد الباحثين فيدرس أوضاع قبائل السراة السياسية خلال القرون الإسلامية الوسيطه والحديثة المبكرة، وكيف كانت علاقاتها مع بعضها البعض أو مع جيرانها من القبائل والقوى السياسية الأخرى . للمزيد انظر: ابن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة (ق ١٠هـ / ق ٧-١٦م)، ج ٢، ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢) أهل تهامة والسراة ومنهم غامد وزهران يرتادون مكة المكرمة باستمرار، وذلك لأداء الحج والعمرة، والمتاجرة، وبعضهم استوطنوا الحجاز واختلطوا بأهلها سياسياً وإدارياً واجتماعياً وثقافياً . للمزيد عن أشراف مكة سياسياً وحضارياً، وعن أهل السراة واتصالهم بالحجاز انظر رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، وتاريخ المستبصر لابن الجاور وأيضاً أحمد السباعي . تاريخ مكة (الرياض : مطبعة العبيكان، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م)، ج ١، ص ٣٢٠ وما بعدها، انظر أيضاً موسوعة المملكة العربية السعودية، مج (١٦)، ص ١٥٠ وما بعدها .

(٣) كانت الحجاز تحت نفوذ دولة المماليك في مصر، فهي تعين من تريد من الأشراف وتعزل من تريد، وفي كثير من الأحيان يحدث صدام بين أمراء الأشراف على السلطة في الحجاز، ونتيجة لتلك الصراعات كانت قبائل السراة (غامد وزهران وما جاورهما) تتورط في تلك الحروب وذلك بتأييد أمير ضد آخر أو قوة ضد أخرى . ونقول : إن دور قبائل السراة الحربي والسياسي في الحجاز خلال القرون الإسلامية الوسيطه والحديثة (ق ٤-١٣هـ / ق ١٠هـ - ق ١٩م) موضوع يستحق أن يكون رسالة دكتوراه أو عنواناً لكتاب علمي أكاديمي .

وفي القرن العاشر الهجري دخلت الحجاز تحت نفوذ الإمبراطورية العثمانية، وبقي الأشراف الحكام المحليين لمكة المكرمة والمدينة المنورة وما جاورهاهما^(١)، ولا نجد مصادر موثوقة تصور لنا تاريخ بلاد السراة بشكل عام أو بلاد غامد وزهران بشكل خاص، لكننا نعثر على بعض الشذرات التي تذكر أن أمراء الأشراف في مكة المكرمة كانوا في حروب أهلية مستمرة من أجل السلطة والفوز بالإمارة، وكان بعضهم على صلات دائمة ببعض الزهرانيين والغامديين وغيرهم من أهل السراة ليقدموا لهم المساعدات الحربية، ويمدونهم ببعض المنتوجات الزراعية والحيوانية، وأحياناً كان بعض أمراء الأشراف يخرجون من مدن الحجاز الرئيسية متوجهين إلى سروات غامد وزهران وما جاورها، وذلك من أجل الإقامة بين أهلها أو الاستعداد وطلب المدد ثم مهاجمة إخوانهم وأبناء عمومته من أشراف مكة بهدف السيطرة عليها، وطرد من كان في إمارتها^(٢).

وقد يسأل سائل، ماهي أوضاع منطقة الباحة (غامد وزهران) التاريخية خلال القرون الثلاثة الأولى في العصر الحديث، وتحديدًا من عام (٩٢٣-١٢١٨هـ / ١٥١٦-١٨٠٣م)؟، وإجاباتنا حسب قراءتنا في كثير من المصادر والوثائق المتعلقة بتاريخ اليمن والحجاز وتهامة والسراة، وتاريخ الدولة العثمانية وغيرها من الإمارات والحكومات والقوى المعاصرة، هي على النحو التالي :

١. هناك الكثير من المؤرخين العرب والمسلمين وغيرهم تحدثوا عن تاريخ دولة بني عثمان، فمنهم من ظلمها ولم يعطها حقها وإنما سعى إلى تعقب سقطاتها وعيوبها، وآخرون بالغوا في مدحها والثناء عليها وتجاهلوا ما وقعت فيه من أخطاء، وفريق ثالث وهم قلة وبخاصة من العرب والمسلمين كانوا منصفين إلى حد ما فيما دونوا عن هذه الإمبراطورية المسلمة، ونحن لا ننزه هذه الدولة الإسلامية من العيب خصوصاً فيما يتعلق بتاريخ العرب والمسلمين، لكنها كانت دولة إسلامية سنية استطاعت أن

(١) دخلت الحجاز تحت نفوذ الدولة العثمانية منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وبقيت على هذا الحال خلال عصر بني عثمان الأول حوالي ثلاثة قرون (٩٢٣-١٢١٨هـ / ١٥١٦-١٨٠٣م) وبقي الأشراف هم أمراء الحجاز من قبل العثمانيين، ومعهم بعض القوى العثمانية التي تشارك في حكم الديار الحجازية سياسياً وعسكرياً.

(٢) الدارس أحوال الحجاز السياسية منذ القرن العاشر الهجري إلى بداية القرن الثالث عشر الهجري (١٩١٦م)، يجد أن الحروب الأهلية بين الأشراف كانت هي الطاغية في أنحاء البلاد، والعثمانيون وإن كانوا أصحاب النفوذ العام على الحجاز وغيرها كانوا مشغولين بحروب ومشاكل عديدة في العالم، وتركوا أرض الحجاز بل الجزيرة العربية في صراعات وحروب دامية، وذلك مما أثر في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية وغيرها. ونقول إن دراسة أحوال الناس الحضارية في الحجاز وما جاورها في القرون (١٠-١٢٣٠هـ / ١٩١٦م) موضوع يستحق أن يخرج عنه عدد من الدراسات العلمية الأكاديمية، مع الحرص على دراسة الأحوال السياسية وأثرها في الجوانب الحضارية الأخرى، ونأمل أن نرى بعض طالباتنا وطلابنا في برامج الماجستير والدكتوراه بأقسام التاريخ في الجامعات السعودية يتولون هذه الحقب وهذه الموضوعات بالبحث والدراسة الأكاديمية الرصينة.

تحمي المقدسات الإسلامية وديار العرب والمسلمين لقرون عديدة، في الوقت الذي كان يتربص بهذه البلاد الكثير من الأعداء وعلى رأسهم الدولة الصفوية الشيعية الرافضية، ناهيك عن قوى الغرب بدءاً بالبرتغاليين في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، ومن جاء بعدهم من أعداء المسلمين الذين كانوا يسعون إلى القضاء على كل ما له صلة بالإسلام والمسلمين، وهذه الإمبراطورية العثمانية كانت صاحبة الفضل بعد الله في الذب عن حياض العرب والمسلمين في تلك العهود الصعبة والحرجة^(١).

٢. كانت جزيرة العرب ترزح تحت قوى وإمارات محلية تعترف بالولاء الفعلي وأحياناً بالولاء الاسمي للإمبراطورية العثمانية، إلا إنها في واقع الأمر في حروب وصراعات داخلية من أجل السيطرة على مقاليد الحكم، أو الفوز ببعض المكاسب السياسية والإدارية والمادية، وإذا نظرنا في أحوال الناس العامة في ظل تلك القوى المتصارعة فلا أمن أو حياة مستقرة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، وإنما عموم الناس يعيشون حياة الكفاف وغالباً كان الجهل والفقر والجوع والمرض والخوف هو السائد في أرجاء البلاد^(٢).

٣. لم تكن بلاد الباحة (غامد وزهران) تخضع لسلطة سياسية مباشرة، وإن كان بعض أعيانها وشيوخها على صلات بالأمرء الأشراف في الحجاز، أو ببعض القادة أو القوى العثمانية في الحجاز أو اليمن وما بينهما^(٣)، وفي اعتقادي الجازم أنهم كانوا على منهاجهم الذي عرفوه وعاشوه خلال القرون الإسلامية الوسيطة، وذلك كما

(١) من يدرس تاريخ دولة بني عثمان سياسياً وحضارياً، وعلى الصعيدين الداخلي والخارجي، سوف يجد لها سلبيات عديدة وبخاصة تجاه العرب، لكن إيجابياتها أيضاً كثيرة تجاه المسلمين وأحياناً العرب، ونأمل أن نرى من الباحثين المنصفين من يقوم بدراسة ما على هذه الدولة ومالها، مع الحرص على الإنصاف والمصداقية في الرصد والتدوين. والنظر اليوم في سياسة الدولة الصفوية الإيرانية وعلاقتها بالقوى الغربية الصليبية والشرقية الملحدة يجد أن التاريخ يعيد نفسه تجاه العرب والمسلمين. ونأمل من الله عز وجل أن يقيض لبلاد العرب والمسلمين في يومنا هذا أمثال الإمبراطورية العثمانية فتدحر الظلم، وتجمع بلاد الإسلام والمسلمين، وليس ذلك على الله بعزيز.

(٢) كانت هناك حواضر رئيسية في الجزيرة العربية، وكانت حياة الناس فيها أحسن حالاً من عموم طبقات المجتمع، في أنحاء البلاد، وهذا ما قرأنا عنه في بعض المصادر أو الوثائق التاريخية السياسية والحضارية. ونقول إن دراسة تاريخ عامة الناس سياسياً وحضارياً في نواح عديدة من جزيرة العرب خلال ثلاثة قرون (٩٠٠-١٢٠٠هـ/ ١٤٩٤-١٧٨٥م)، موضوع مهم وجديد في بابه ويستحق أن يخرج عنه عشرات الرسائل والكتب والبحوث العلمية، ونأمل من المؤرخين الباحثين الجادين أن يلتفتوا إلى دراسة هذه القرون الإسلامية الحديثة.

(٣) في اعتقادي أن ما بين اليمن والحجاز، والمعروفة بـ (تهامة والسراة)، كانت خاضعة لأعيان وشيوخ القبائل، وأحياناً كانت القبائل تتحالف فيما بينها، وتكتب بينها عقود واتفاقيات من أجل الدفاع عن بلادها ضد من يعادها أو يهاجمها. لقد اطلع الباحث على عشرات الوثائق والاتفاقيات التي تذكر تحالف عدد من القبائل في حلف واحد يطلق عليه اسم القبائل المتحالفة، أو بعض الأسماء الدالة على تحالفهم، ومعظم بنود تلك العقود تؤكد التآزر والتعاون والبقاء يد واحدة ضد أي عدو أو خطر يدهمهم.

وصفهم بعض الرحالين المتقدمين، فابن المجاور في القرن (السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) يقول " أنهم قبائل وفخوذ من العرب ليس يحكم عليهم سلطان، بل مشائخ منهم ... " (١). ويورد تفصيلات أكثر عنهم فيقول: " .. ويحكم على كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن، ذو عقل وفطنة، فإذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشير عليهم ويحكم فيهم، وجميع من في هذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان ... وبهذا لا يزال القتال دأبهم، ويتغلب بعضهم على مال بعضهم، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو، وهم طوال الدهر على هذا الفن، وجميع زروعهم الحنطة والشعير، وشجرهم الكروم والرمان واللوز، ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيرات، وأكلهم السمن والعسل، وهم في دعة الله وأمانه ... " (٢).

وهذه المعلومات التي حفظها لنا ابن المجاور تقرب لنا الصورة نوعاً ما عن حياة الغامديين والزهرانيين السياسية وشذرات من أحوالهم الإدارية والاقتصادية والأمنية (٣)، وفي اعتقادي أن هذه فعلاً الحياة التي عاشوها ثم استمروا عليها حتى ظهور الدولة السعودية الحديثة (٤).

٤. من يدرس مصادر تاريخ اليمن والحجاز سوف يجد شذرات متفرقة عن التاريخ السياسي والحضاري لبلاد غامد وزهران وما جاورها (٥)، ومن يتجول في أرجاء منطقة الباحة (غامد وزهران) فسوف يلحظ الكثير من النماذج الحضارية التي

(١) انظر: جمال الدين ابن المجاور . تاريخ المستبصر (ليدن : بريل، ١٩٥١-١٩٥٤م)، ج ١، ص ٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧. للمزيد انظر: غيثان بن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ج ٢، ص ١٧٧-١٧٨، المؤلف نفسه، موسوعة المملكة العربية السعودية، مج (١٦)، ص ١٤٧.

(٣) للمزيد عن الحياة السياسية والحضارية لسكان بلاد غامد وزهران وغيرهم من أهل تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيلة وأوائل الحديثة . انظر، ناصر خسرو، كتابه سفرنامه (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٨٢م)، ص ١٤١، وغيره من الجغرافيين والرحالة المسلمين مثل: ابن خرداذبة، كتاب المسالك، والمقدسي، أحسن التقاسيم، وابن جبیر، الرحلة، وابن المجاور، تاريخ المستبصر، وابن بطوطة، الرحلة وغيرها .

(٤) من خلال اطلعنا على آلاف الوثائق التاريخية في القرون (١٤٠٩هـ/٢٠١٥م) وجدنا أن عموم بلاد تهامة والسراة بما فيها غامد وزهران كانت تدين بالولاء الكامل لشيخوها وأعيانها، وإذا رغبت في المشاركة الحربية أو الاجتماعية وغيرها فلا يخرج أفراد العشيرة أو القبيلة الواحدة عن رأي شيخوهم وأعيانهم . وأثناء قراءتنا في بعض تلك الوثائق وجدنا أحياناً الجور والظلم قد يحل من شيوخ القبيلة على بعض أفرادها، كما أن العقوبات والحل والعقد هو في يد أولئك الشيوخ ومعهم من يساندتهم وأحياناً يداينهم أو يشجعهم من أبناء القبيلة نفسها على اتخاذ قراراتهم وتطبيقها . ونقول إن دراسة وثائق تلك الفترة ومعرفة أصحاب النفوذ والقوى في القبيلة، وما ينتج عن إدارتهم لقبائلهم من سلب وإيجاب موضوع جديد ويستحق أن يكون عنواناً لرسالة دكتوراه أو كتاب علمي أكاديمي.

(٥) نعم تلك المصادر لا تخلو من جزئيات تعكس تاريخ السروات بشكل عام وغامد وزهران بشكل خاص. ونأمل أن نرى أحد طلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد، برامج الماجستير والدكتوراه، فيدرس تلك المصادر ويستخرج ما ذكرت من تفصيلات عن بلاد تهامة والسراة منذ فجر الإسلام حتى القرن الرابع عشر الهجري (ق ٧ - ٢٠م) .

تعطي صوراً تقريبية لتاريخ هذه البلاد^(١)، ومن تلك النماذج ما يلي :

- أ - بعض قرى ومنازل وقصور الشيوخ أو الأسر العريقة في منطقة الباحة، وتلك الأنماط المعمارية يعود تاريخها إلى الوراثة مئات السنين، وهذا ما يؤكد أن أصحاب هذه البلاد أصحاب بناء وحضارة^(٢).
- ب - بعض العقود والصكوك والوثائق التي تصور بعض العادات والتقاليد والأعراف عند أهل البلاد، أو تذكر بعض العقار والأموال وبها العديد من أسماء الأماكن والأعلام، ناهيك عن ما ذكر فيها من معلومات، أو صياغات علمية وثقافية^(٣).
- ج - وجود بعض الطرق والأسواق القديمة، وكذلك بعض الألبسة وأدوات الزينة والطعام التي عرفها أهل البلاد منذ مئات السنوات، وربما بعضها عرف عند أهل البلاد من العصر الجاهلي وعبر عصور الإسلام المختلفة^(٤).
- د - بعض القصص والروايات والأشعار الشعبية والأخبار والمفردات اللغوية التي تناقلتها الأجيال عبر العصور الإسلامية، ومثل هذا النوع من المصادر يجب التعامل معه تاريخياً بحذر، لكنه لا يخلو من ومضات حضارية تعكس حياة الناس في منطقة الباحة خلال القرون الإسلامية الماضية^(٥).

(١) تجول الباحث في أرجاء هذه البلاد مرات عديدة، وكان آخرها في نهاية عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

(٢) شاهدنا في سرورات غامد وزهران، وكذلك في أجزاءها التهامية العديد من القرى والطرق القديمة والحصون الأثرية التي يعود تاريخها إلى ثلاثمائة وربما خمسمائة عام تقريباً. ومثل هذه المصادر الأثرية جديرة بالاهتمام من قبل مؤسسات التعليم والسياحة، كما أنها أيضاً تستحق البحث والدراسة من قبل الباحثين والمؤرخين الجادين.

(٣) استطاع الباحث أن يحصل أو يطلع على بعض الوثائق والعقود والصكوك الغامدية والزهرانية التي يعود تاريخها إلى القرون (٩، ١٠، ١١هـ/١٥، ١٦، ١٧ م). وهذه الوثائق تحوي بعض التفاصيل الاجتماعية والاقتصادية. وأحياناً العلمية الخاصة بأهل البلاد، كما يغلب على معظم تلك الوثائق الوضوح في خطها مع ضعف في لغتها وصياغتها. نأمل أن نرى أحد الباحثين من بلاد غامد وزهران يجمع الوثائق المحلية المختلفة ثم دراستها من شتى الجوانب. كما نأمل أن تسعى جامعة الباحة وإمارتها على إنشاء متحف علمي يجمع فيه وثائق المنطقة المحلية وبعض الموروثات الأثرية.

(٤) التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في منطقة الباحة منذ فجر الإسلام إلى القرن (١٤هـ/٢٠م) جدير بالبحث والدراسة. نعم إنها موضوعات صعبة جداً، لكن من يعمل ويقارن ويقارن ويجتهد فقد يخرج لنا مادة علمية ذات فائدة.

(٥) عند ذهابي إلى بلاد غامد وزهران مرات عديدة، ثم التجول في أرجائها والسماع من بعض رواياتها وشعرائها، وأيضاً التوقف مع بعض ألقاب أهلها ولهجاتهم اتضح لي أنهم أصحاب حضارة وفكر وثقافة، بل إن بعضاً من الأخبار التي سمعتها تعود إلى القرون الإسلامية الوسيطة وأوائل العصر الحديث. ونأمل أن نرى من باحثي جامعة الباحة أو من أهل التاريخ واللغة في منطقة الباحة من يسعى إلى جمع ذلك الموروث الشعبي والأخبار واللهجات ثم دراستها دراسة علمية أكاديمية. كما نأمل من أقسام الاجتماع والتاريخ والفلكلور واللغة وأدبها في جامعة الباحة وغيرها من جامعات المملكة من يهتم بهذا الباب المهم في معلوماته وتراثه وحضارته.

ب. تاريخ الباحة منذ أوائل القرن (١٣هـ / ١٩م) حتى عام (١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م) :
 حتى مطلع القرن (١٣هـ / ١٩م) نلاحظ أن الأوضاع السياسية في الحجاز وما والاها جنوباً كان يسودها الاضطراب والفوضى وعدم الأمن^(١) . وفي تلك الظروف كانت الدعوة السلفية الإصلاحية قد ظهرت في نجد على يد الإمامين : الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب^(٢) . وامتدت آثارها الإيجابية إلى مناطق الباحة وعسير وجازان والقنفذة ونجران، وبعض أجزاء من بلاد اليمن^(٣) .

ولن نفصل الحديث عن وصول الدعوة السلفية إلى جنوبي البلاد السعودية، ولن نسهب في الشرح عن امتداد نفوذ الدولة السعودية الأولى إلى جازان وعسير ونجران والقنفذة والباحة، وذلك لأنه صدر عن تلك الفترة عشرات الكتب والبحوث والرسائل العلمية^(٤) . ولكن لا بد من الإشارة إلى بعض المحطات الرئيسية، وهي على النحو التالي :

١ . أن الدعوة السلفية أرسلت بعض دعواتها والمولين لها من بعض النواحي في جنوب البلاد السعودية كي ينشروا مبادئ هذه الدعوة بين أهلهم وعشائرتهم، وقد نجح محمد بن عامر وأخوه عبد الوهاب (أبو نقطة) في عسير، وأحمد بن حسين الفلقي، وعرار بن شار الشعبي في بعض نواحي جازان^(٥) ، وهؤلاء الرسل يعدون

(١) الدارس أحوال البلاد الممتدة من مكة والطائف شمالاً إلى جازان ونجران جنوباً خلال القرنين (١٢٠١هـ / ١٨١٧م)، وكذلك العقود الأولى من القرن (١٣هـ / ١٩م) يجد أن القبائل في تلك النواحي كانت هي المسيطرة على تلك الديار، بل كانت الصراعات والغارات القبلية هي السائدة والفائزة بالنصيب الأكبر في جميع أرجاء الجزيرة العربية .

(٢) الدعوة الإصلاحية أو السلفية في نجد مرتبطة بالإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ . ١٢٠٦هـ / ١٧٩١ . ١٧٠٣م) ، وهو من أبرز الشخصيات الإصلاحية في العصر الحديث، وقد صدر عنه وعن دعوته مئات البحوث والكتب العلمية .

(٣) الدعوة الإصلاحية ظهرت في نجد في منتصف القرن (١٢هـ / ١٨م) ، ونمت وترعرعت في أحضان أئمة آل سعود الأوائل، ثم امتدت هذه الدعوى تحت مظلة الدولة السعودية الأولى (١٢٢٣ . ١١٥٨هـ / ١٨١٨ . ١٧٤٥م) حتى وصلت إلى جميع أصقاع الجزيرة العربية، وبلدان أخرى عديدة خارج الجزيرة العربية . للمزيد من التفصيلات عن تاريخ الدولة السعودية الأولى والدعوة الإصلاحية، انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . الدولة السعودية الأولى (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٦م) ، ص ٧٢، وما بعدها . وللمزيد انظر: عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد (الرياض: د.ت) ، ج ١، ص ١٤ وما بعدها، أحمد عطية الزهراني . دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي، رسالة دكتوراة، جامعة أم القرى (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ، ص ٢٨ وما بعدها .

(٤) انظر قائمة المكتبات المركزية في الجامعات والمراكز البحثية المحلية والإقليمية والعالمية وسوف تجد مصادر ومراجع كثيرة جداً تصب في تاريخ الدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى بشكل عام ومناطق جنوب الجزيرة العربية بشكل خاص .

(٥) للمزيد انظر محمد أحمد العقيلي . تاريخ المخلاف السليماني (الرياض: مطابع الرياض، ١٣٧٨هـ) ، ج ٢، ص ٤٨٢ وما بعدها، عبد الرحيم عبد الرحمن، الدولة السعودية الأولى، ص ٢٤ وما بعدها، أحمد آل فائع . دور آل المتحمي في مد نفوذ الدولة السعودية الأولى في عسير وما جاورها (١٢٣٢ . ١٢١٥هـ / ١٨٠٠ . ١٨١٨م) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م) ، ص ١٣ وما بعدها، ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٦، ص ٤٤ وما بعدها .

من أوائل المؤسسين للدعوة السلفية في الجنوب، ولم يأت نهاية العقد الثاني في القرن (١٣هـ/١٩م) إلا ومعظم بلدان الجنوب أصبحت موالية وحامية ومدافعة عن الدعوة السلفية في أوطانها^(١).

٢. ظهر عدد من المناوئين للدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى مثل: بعض الأشراف في منطقة جازان وبخاصة الشريف حمود أبو مسمار في أبي عريش^(٢)، وبعض أشراف الحجاز كالشريف غالب بن مساعد^(٣) الذي تصدى للقوات السعودية جنوب الطائف وجرى بينه وبينها حروب عديدة أدت في نهاية المطاف إلى هزيمته ودخول الجيوش السعودية إلى مكة المكرمة في عام (١٢١٨هـ/١٨٠٣م)^(٤).

وفي العقدين الثاني والثالث من القرن (١٣هـ/١٩م)، كانت الدولة السعودية الأولى قد مدت نفوذها على أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية، بل أصبحت الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) التي يتولى أمرها الأمراء الأشراف للعثمانيين تحت سيطرة أئمة آل سعود الأوائل، ناهيك عن بلاد تهامة والسراة التي يسوس أمرها لحكام آل سعود إمارة آل المتحمي في عسير (١٢١٥-١٢٣٣هـ/ ١٨٠٠-١٨١٨م)^(٥).

وفي ظل تلك الظروف السياسية لم يكن على الدولة العثمانية إلا أن تتصدى لهذه الدولة السعودية الناشئة، وقد حاولت عن طريق بعض الموالين لها في الحجاز، وولاتها

(١) المراجع نفسها .

(٢) استطاع حمود أبو مسمار أن يمد نفوذه على مناطق عديدة في منطقة جازان، بل تصدى للقوات السعودية ومعظمها من بلاد عسير تحت قيادة الأمير محمد أبو نقطة وأخوه عبد الوهاب، وأخيراً دخل في صلح مع الدولة السعودية وأصبح أحد رجالها في المخلاف السليماني (منطقة جازان) . للمزيد انظر: عبد الرحمن أحمد البهكلي، نفع العود في سيرة دولة الشريف حمود . تحقيق محمد أحمد العقيلي (جازان : مطابع جازان، ١٤٠٦هـ، ص ٢١١ وما بعدها .

(٣) للمزيد عن إمارة الشريف غالب بن مساعد على مكة المكرمة وتصديه لقوات الدولة السعودية الأولى في الطائف ومكة المكرمة انظر، أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص ٥٥٨ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه، وللمزيد انظر: عثمان بن بشر، عنوان المجد، ج ١، ص ١٢١ وما بعدها . والدارس لتاريخ الأشراف في تهامة والسراة خلال العصر الحديث يجد أن بعضهم كانوا معادين للدول السعودية الثلاث، وآخرين موالين لأئمة آل سعود وغير متفقين مع أخوانهم وأبناء عموماتهم، وتلك الموالاة والعداوة كانت خاضعة لأسباب وظروف سياسية متعددة . ونقول إن دراسة تاريخ الأشراف السياسي والحضاري وبخاصة في بلاد السراة وتهامة خلال القرون الإسلامية الوسيطة والحديثة موضوع جدير بالبحث والدراسة .

(٥) للمزيد عن إمارة آل المتحمي في عسير انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن، الدولة السعودية الأولى، ص ٢٨ وما بعدها، أحمد آل فائع، دور آل المتحمي، ص ١٧ وما بعدها . لا نجد مصادر ووثائق واضحة تبين تاريخ بلاد غامد وزهران في تلك الفترة، ولكن من خلال استقراء أوضاع الحجاز وجازان وعسير ندرك أن منطقة الباحة قد رحبت بالدعوة السلفية منذ أوائل القرن (١٣هـ/١٩م)، وربما سمعوا بها من قبل ذلك، كما أن الغامديين والزهرانيين كانوا مؤيدين وموالين لحكام الدولة السعودية الأولى مثلهم مثل بعض الحجازيين، وأهل جازان وعسير الذين حاربوا ونافحوا من أجل ترسيخ مبادئ الدعوة السلفية في أوطانهم، وأكبر مثال على ذلك إمارة المتاحمة التي حكمت معظم أجزاء الجنوب لأئمة الدولة السعودية الأولى .

في الشام والعراق، ولكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً، وعندئذ كلفت واليها على مصر، محمد علي باشا، التصدي لهذه القوة الجديدة في الجزيرة العربية، وفي منتصف العقد الثالث من القرن (١٢هـ/١٩م) خرج محمد علي مع ابنه طوسون وإبراهيم للقضاء على القوة السعودية في نجد وغيرها من أجزاء الجزيرة^(١) وكانت أول محطاته مدن الحجاز الرئيسية التي استولى عليها في الفترة الممتدة من (١٢٢٦-١٢٢٨هـ/١٨١١-١٨١٣م)^(٢)، وفي أثناء تلك الحروب مع السعوديين في أرض الحجاز اتضح لمحمد علي أن أكبر مدد يأتيهم من الرجال والعتاد كان من بلاد غامد وزهران وعسير وما جاورها، ولهذا أرجأ القضاء على الدولة السعودية وعاصمتها الدرعية في نجد، وأرسل قواته ثم ذهب بنفسه نحو البلاد الواقعة جنوب الطائف^(٣)، ودارت بينه وبين القوات السعودية التي معظمها من أهل الجنوب معارك عديدة من أشهرها وأعنفها معركة بسل جنوب الطائف عام (١٢٣٠هـ/١٨١٥م)، وقد أحرز محمد علي نصراً حاسماً في تلك المعركة، وفتح له الباب تجاه مناطق الباحة وبيشة وعسير، وكان الأمير طامي بن شعيب، أمير عسير، (١٢٢٤-١٢٣٠هـ/١٨٠٩-١٨١٤م) هو القائد العام لجيوش عسير وما جاورها بعد معركة بسل^(٤)، واستطاع الباشا محمد علي أن يواصل زحفه على أجزاء من بلاد السراة حتى دخل مدينة أبها وسيطر عليها وأخيراً تم القبض على الأمير طامي بن شعيب وأرسل إلى مصر ثم الاستانة حيث تم إعدامه هناك عام (١٢٣٢هـ/١٨١٦م)^(٥).

وفي رحلة محمد علي باشا العسكرية إلى بلاد عسير واجهت جيوشه العديد من العقبات مع قبائل السراة ومنهم قبائل غامد وزهران التي تصدت لتلك القوى الغازية، وكان على مقدمة القوات السروية الأمير بخروش بن علاس الزهراني، الذي ألحق خسائر

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: عبد الرحمن الجبرتي . تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (بيروت، د.ت) ج٢، ص ٢٢٨ وما بعدها، عبد الرحيم عبد الرحمن، الدولة السعودية الأولى، ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) المصادر والمراجع نفسها، وللمزيد انظر: محمود شاكر، عسير (بيروت، المكتب الإسلامي، د.ت)، ١٦٢ وما بعدها.

(٣) جرت حروب بين جيوش محمد علي باشا والقوات السعودية وكانت الحرب في بداية الأمر سجلاً، ولكن عتاد محمد علي وجيوشه كانت أكثر وأقوى، وبالتالي استطاع أن يدحر الجيوش السعودية ويهزمها في أماكن عديدة .

(٤) الأمير طامي بن شعيب أحد أمراء إمارة المتاحمة، وأحد الرجال المشاهير في الدولة السعودية الأولى، وكان على قدر كبير من الشجاعة والتقى والصلاح، وهو جدير بأن يكتب عنه كتاب أو رسالة علمية أكاديمية، ونأمل من أحد طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بالجامعات السعودية أن يتخذ من هذا العلم وما قدمه من إسهامات عسكرية وحضارية موضوعاً لأطروحة ماجستير أو دكتوراه، وهو فعلاً يستحق ذلك .

(٥) للمزيد انظر، عبد الرحيم عبد الرحمن، الدولة السعودية الأولى، ص ٢٢٠، مازال هناك غموض في هزيمة طامي بن شعيب والقبض عليه ثم ترحيله إلى بلاط الدولة العثمانية، ونأمل أن نرى باحثاً جاداً يكشف لنا بعض المصادر والوثائق الجديدة الخاصة بهذه الفترة وهذا الموضوع، ومن المؤكد أنه مازال في أراشيف تركيا الكثير من الوثائق التي تستحق البحث والتحليل والدراسة .

فادحة بجيوش محمد علي، لكنهم في نهاية الأمر قبضوا عليه وقتلوه^(١)، والمعروف عن رجال السروات أنهم أصحاب شجاعة وإقدام، لكن جودة سلاح محمد علي وتطوره جعلته ينتصر عليهم في معارك عديدة^(٢).

وبعد انتصار محمد علي باشا على أهل الجنوب كونهم القوة الرئيسية في جيوش الدولة السعودية الأولى^(٣)، ركز جهوده تجاه عاصمة السعوديين الأوائل في الدرعية، ومن ثم أوكل تلك المهمة إلى ابنه إبراهيم باشا وسانده بالرجال والعتاد حتى أسقط الدولة السعودية الأولى، ودمر عاصمتها الدرعية عام (١٢٢٣هـ/١٨١٨م)، وبالتالي تحقق للدولة العثمانية هدفها، وهو القضاء على هذه الدولة العربية السعودية من خلال واليها على مصر محمد علي باشا^(٤).

ترك محمد علي باشا فرقاً من جيشه في عسير لتحكم البلاد باسمه، ولكن أهل عسير لم يقبلوا ذلك، وإنما ثاروا على تلك الحامية وطردوها، وعندما انتهى إبراهيم باشا من القضاء على الدرعية كلفه والده التوجه إلى بلاد السراة وصولاً إلى عسير من أجل معاينة الثائرين المتمردين على نفوذه، فخرج إبراهيم من مكة والطائف ومعه الشريف محمد بن عون قائداً عاماً لجيشه فوصلوا إلى بلاد غامد وزهران ورجال الحجر حتى شمال مدينة أبها، وهناك دارت معارك قوية بين العسيريين وقوات إبراهيم باشا والشريف محمد بن عون^(٥)، وفي النهاية هُزم العسيريون وألقي القبض على أميرهم محمد المتحمي، وتم إخضاع عسير مرة ثانية للجيوش العثمانية^(٦).

(١) الأمير بخروش قائد بارع قاد رجاله ضد العثمانيين وانتصر عليهم في مواقع عديدة، وهو جدير بأن يفرد له بحث أو رسالة علمية أكاديمية ترصد إسهاماته المختلفة، كما أن هناك أعلاماً آخرين معاصرين لبخروش مثل: ابن رقوش الزهراني، وابن شبان في بيشة وغيرهما كثيرون في بلاد تهامة والسراة.

(٢) التاريخ العثماني العسكري في الحجاز وبلاد تهامة والسراة موضوع يستحق بأن يفرد له كتاب أو رسالة علمية أكاديمية، وفي أراشيف الحكومة التركية اليوم الكثير من الوثائق التاريخية الجديدة وغير منشورة وتحتوي الكثير من التفاصيل السياسية والحضارية لتاريخ العثمانيين في عسير وجازان والباحة خلال القرن (١٩هـ/١٩م) وبدايات القرن (٢٠هـ/٢٠م).

(٣) بذل أهل تهامة والسراة جهوداً جبارة في التصدي للجيوش العثمانية خلال القرن (١٢هـ/١٩م)، ومن المؤكد أن هناك الكثير من الوثائق غير المنشورة في هذا الباب. ونأمل أن نرى مؤرخاً جاداً يتولى هذه الفترة بالبحث والدراسة العلمية الموثقة.

(٤) انظر: موسوعة المملكة العربية السعودية، مج (١٦) ص ١٦٠. وللمزيد عن توسع محمد علي في الجزيرة العربية، انظر، عائض الروقي، حروب محمد علي في شبه الجزيرة العربية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٤هـ، ص ٢٥ وما بعدها..

(٥) هناك بحوث وكتب عديدة ناقشت هذه التفاصيل مثل: تاريخ عسير لهاشم النعمي، وعسير لمحمود شاكر وأخبار عسير لعبد الله بن مسفر. وربما مازال في أراشيف تركيا وثائق جديدة لم تنشر عن هذه الفترة. أما أشرف الحجاز وعلاقتهم السياسية والحربية ببلاد السراة وخاصة منطقة عسير خلال القرنين (١٣هـ/١٩م) فهو موضوع يستحق العديد من الدراسات الأكاديمية، وحتى هذه اللحظة لم يخدم بطريقة علمية جيدة.

(٦) انظر المراجع السابق ذكرها في الحاشية السابقة. وللمزيد انظر عائض الروقي، حروب محمد علي باشا في شبه الجزيرة العربية، ص ٢٨ وما بعدها.

لكن العسيريين لم يستكينوا لهذا الاحتلال، وإنما قام الأمير سعيد بن مسلط العسيري واستولى على البلاد عام (١٢٣٦هـ/١٨٢٠م)، وطرد القوى الموالية لمحمد علي باشا في عسير، ومن ثم دخلت بلاد السراة الممتدة من أبها إلى الطائف في حروب متتالية بين العسيريين في عسير والأشراف، وجيوش محمد علي باشا في الحجاز، وكانت بلاد الحجر (بلحمر، وبللسمر، وبنو شهر، وبنو عمر) وبلاد غامد وزهران هي الميادين الحربية لتلك القوى المتصارعة، وعند وفاة أمير عسير، سعيد بن مسلط، تولى أمر البلاد العسيرية بعده ابن عمه علي بن مجتل عام (١٢٤٢هـ/١٨٢٦م)، وبقي في حكم البلاد حتى وفاته عام (١٢٤٩هـ/١٨٣٣م)، وجاء بعده أحد قادته وهو الأمير عائض بن مرعي (١٢٤٩-١٢٧٣هـ/١٨٣٣-١٨٥٦م)، ثم ابنه محمد بن عائض بن مرعي (١٢٧٣-١٢٨٩هـ/١٨٥٦-١٨٧٢م) ^(١).

وفي الفترة الممتدة من سقوط الدرعية عام (١٢٣٣هـ/١٨١٨م) حتى نهاية حكم الأمير محمد بن عائض بن مرعي على عسير عام (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م) نجد بلاد غامد وزهران يسودها العديد من الاضطرابات السياسية والحربية، وذلك بسبب ما حدث في نجد أو الحجاز أو عسير، ونجمل تلك الأوضاع في النقاط التالية :

١. استمرت جيوش محمد علي باشا وأشراف الحجاز تواصل حروبها ضد غامد وزهران وما والاها جنوباً حتى بلاد عسير، ومن ثم حدث الكثير من الصدامات بين جيوشه وأهالي البلاد السروية بقيادة بعض أفراد عسير مثل: ابن مسلط، وابن مجتل، وعائض بن مرعي، وكانت أوطان غامد وزهران في مد وجزر بين تلك القوى المتصارعة في عسير وفي الحجاز، فأحياناً تتضوي أو تهدان جيوش محمد علي والأشراف، وفي أوقات أخرى تنضم إلى جيوش عسير ضد أعدائهم، وفي عام (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م) عقد مؤتمر لندن ومن ضمن قراراته انسحاب محمد علي باشا وجيوشه في الجزيرة العربية، وقد تم هذا الانسحاب فعلاً ^(٢).

٢. في الفترة الممتدة من (١٢٥٦-١٢٨٩هـ/١٨٤٠-١٨٧٢م) تكاثفت قوات الدولة العثمانية والأشراف في الحجاز ضد أمراء عسير، وبخاصة في عهدي الأميرين عائض بن مرعي وابنه محمد بن عائض (١٢٤٩-١٢٨٩هـ/١٨٣٣-١٨٧٢م) وجرت حروب دامية

(١) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ تهامة والسراة وبخاصة بلاد عسير وما جاورها خلال القرن (١٩هـ/١٩م)، انظر: الروقي، حروب محمد علي في شبه الجزيرة العربية، علي أحمد عسيري . عسير (١٢٤٩هـ / ١٨٣٣-١٢٨٩هـ/١٨٨٧م) (دراسة تاريخية) (أبها : نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، ص ٧٣ وما بعدها، غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٦، ص ٥٩ وما بعدها .

(٢) انظر الروقي، حروب محمد علي في شبه الجزيرة العربية، ص ٣٢ وما بعدها .

بين الطرفين في بلاد غامد وزهران وبيشة ورجال الحجر وأجزاء أخرى من بلاد عسير، وهدف كل هذه القوى مد نفوذها وسيطرتها على بلاد تهامة والسراة^(١)، والدارس لأحوال القبائل الرئيسية في هذه البلاد يجد أنها متقلبة في سياساتها، فهي مرة تهادن أو تساند العسيريين ضد العثمانيين والأشراف، وأحياناً تكون مع قوات الحجاز ضد أهل عسير^(٢)، مع أن الغلبة في معظم الأحيان كانت للأميرين عائض بن مرعي وابنه محمد اللذين كانا يمدان نفوذهما شمالاً إلى مناطق غامد وزهران وربما تجاوزوها في بعض الأوقات نحو الشمال^(٣).

٣. في عام (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م) كانت نهاية إمارة آل عائض في عسير، ومجيء العثمانيين إلى جازان وعسير والباحة والقنفذة والسيطرة عليها سياسياً وعسكرياً، وقد استمروا في حكم هذه البلاد حوالي نصف قرن^(٤).

٤. نال منطقة الباحة (غامد وزهران) الكثير من الأذى نتيجة للصراعات والحروب التي وقعت بين الإمارات العسيرية وقوات الأشراف والعثمانيين في الحجاز (١٢٣٢-١٢٨٩هـ/١٨١٨-١٨٧٢م). ومن تلك الأضرار: (أ) تدمير قراهم ومزارعهم، وأحياناً قتل رجالهم أو إجبارهم على دفع ضرائب وإتاوات غير شرعية. (ب) نشر الرعب في بلادهم، وذلك مما جعل الأمن مفقوداً، وهذا هو الذي جعلهم مذنبين في ولائهم إلى تلك القوى الخارجية، وذلك التذبذب لم يكن مقصوداً على أعيانهم وشيوخهم وإنما شمل شرائح كبيرة من المجتمع الغامدي والزهراني^(٥). (ج) من المعروف أن بلاد غامد وزهران ثرية بخيراتها الزراعية والحيوانية، ولهذا حرص الأشراف والعثمانيون في الحجاز على السيطرة عليها. وهناك الكثير من الوثائق والمراسلات بين أمراء وقادة الحجاز وبين الحكومة العثمانية في الآستانة ومصر،

(١) للمزيد انظر علي عسيري، عسير، ص ١٦٠ وما بعدها.

(٢) دراسة أحوال بلاد تهامة والسراة السياسية والإدارية خلال القرن (١٢هـ/١٩م) موضوع يستحق أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة ماجستير أو دكتوراة. نأمل أن نرى أحد طلابنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد، برنامج الدراسات العليا، يتولاه بالبحث والدراسة في رسالة علمية أكاديمية.

(٣) دراسة علي أحمد عسيري، عسير (١٢٤٩-١٢٨٩هـ)، وبخاصة إمارة آل عائض جيدة في محتواها وتحليلها، ولكن هذه الفترة مازالت بحاجة إلى دراسة أعمق وأوسع خصوصاً عن الجوانب الحضارية في عصري هذين الأميرين العسيريين. ونأمل أن نرى أحد المؤرخين أو الباحثين الجادين يتولى هذا الموضوع بمزيد من البحث والدراسة العلمية الأكاديمية الموثقة.

(٤) دراسة تاريخ العثمانيين السياسي والحضاري وبخاصة في بلاد تهامة والسراة منذ نهاية القرن (١٢هـ/١٩م) والعقود الأولى من القرن (١٤هـ/٢٠م) موضوع يستحق أن يخرج عنه العديد من البحوث والدراسات العلمية الأكاديمية.

(٥) دراسة تاريخ بلاد غامد وزهران السياسي والحضاري وصلاتها مع جيرانها في الحجاز وعسير خلال العقود السبعة الأولى من القرن (١٢هـ/١٩م) موضوع مهم وجيد ويستحق أن يكون عنواناً لرسالة أو كتاب علمي موثق.

وهي تذكر صراحة أهمية غامد وزهران اقتصادياً وضرورة العمل على دخولها في حوزة القوى العثمانية في الحجاز . (د) العسيريون لم يألوا جهداً في الاستيلاء على بلاد غامد وزهران، وذلك لأهميتها الاقتصادية والجغرافية فهي قريبة الشبه لمنطقة عسير في التضاريس والمناخ وكذلك العادات والتقاليد والأعراف^(١) .

ج- تاريخ الباحة منذ عام (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م) حتى العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ/٢٠م) :

امتد نفوذ آل عائض شمالاً إلى بلاد غامد وزهران والقنفذة، وسارت بعض الجيوش العسيرية من أبها جنوباً حتى وصلت الحديدة، وهذا التوسع العسيري أقلق الدولة العثمانية وعندئذ جهزت جيشاً بقيادة رديف باشا وأحمد مختار باشا وأرسلته إلى بلاد عسير في نهاية عام (١٢٨٨هـ/١٨٧٢م) من أجل القضاء على إمارة آل عائض، واستطاعت تلك الجيوش العثمانية القضاء على أمير عسير، محمد بن عائض، والسيطرة على منطقة عسير^(٢) .

في هذه المرة قررت الدولة العثمانية السيطرة على بلاد عسير عسكرياً وإدارياً، ومن ثم جعلت مدينة أبها المقر الرئيسي لحكمهم، ثم مدوا نفوذهم إلى القنفذة والباحة شمالاً، وجازان وقحطان وبلاد وادعة جنوباً، وقسمت هذه المنطقة إلى سبعة أقسام:، الإدارة الرئيسية (المتصرفية) في أبها، وست مناطق أخرى هي: (١) نواحي القنفذة ومركزها مدينة القنفذة . (٢) بلاد غامد وزهران ومركزها رعدان. (٣) محائل وبارق وقتا ومركزها محائل . (٤) بلاد رجال ألمع ومركزها الشعبين . (٥) بلاد رجال الحجر ومركزها النماص . (٦) جازان وصيبيا وأبو عريش ومركزها صيبيا^(٣) . وجعلت في كل

(١) المنطقة الممتدة من نجران إلى الطائف متشابهة ومتقاربة في تضاريسها ومناخها وطبيعة أهلها، وفي عقائدهم وأعرافهم ولهجاتهم وثرواتهم الاقتصادية، بل إنهم مشتركون في الكثير من حروبهم وتواريخهم السياسية . ونقول إن دراسة هذا التشابه والتقارب جدير بالبحث والدراسة، ونأمل من الجامعات السعودية في هذا الجزء السعودي أن تولي هذه البلاد (أرضاً وسكاناً) الكثير في بحوثها ودراساتها العلمية والثقافية والفكرية والأدبية .

(٢) تاريخ العثمانيين السياسي والحضاري في بلاد تهامة والسرورات (القنفذة، جازان، الباحة، عسير) جدير بالاهتمام، بل يستحق بأن يصدر عنه عدد من البحوث والدراسات العلمية الموثقة .

(٣) هذه الإدارات العثمانية وتلك الفترة الزمنية (١٢٨٩هـ/١٢٣٧-١٢٨٩هـ/١٩١٨م) لم تخدم بحثياً، وهناك آلاف الوثائق الجديدة وغير المنشورة في هذا الباب وهي متناثرة في أراشيف تركيا ومصر وربما عند بعض أعيان وشيوخ بلاد تهامة والسرارة . ونأمل أن نرى من الباحثين الجادين من يقوم بدراسة هذه الحقبة التاريخية المهمة . وللأسف فقد رأيت خلال الثلاثين عاماً الماضية بعض الشيوخ والأعيان في مناطق الجنوب السعودي ولديهم وثائق ومراسلات عديدة تعود إلى ذلك العصر، لكنهم لا يظهرونها وهم بذلك يحبسون علومها ومعارف تخص هذه الديار التهامية والسرورية، وربما يرون أنهم في عصر وحكم يختلف عن ذلك الزمن، ولا يرغبون في إخراجها خوفاً من المساءلة، أو أن يقال إنهم مصدر تلك الوثائق، وهذه فعلاً نظرية خاطئة ونأمل أن يتعلموا ولا يضمنوا بهذا الموروث التاريخي والثقافي والحضاري لهذه البلاد العربية المأجدة .

ناحية من هذه البلاد التهامية والسروية حاكماً عثمانياً يدير شؤون الحكم فيها ويرتبط بالمتصرف العام في أباها^(١).

وأصبحت بلاد غامد وزهران ناحية إدارية تتبع متصرف عسير، لكن المصادر وبعض الوثائق تشير إلى أن الأشراف والنفوذ العثماني في الحجاز كانوا يمدون نفوذهم إلى منطقة الباحة من أجل قمع المتمردين والثورات المحلية هناك، ففي عام (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م) أرسلت حملة من مكة إلى الباحة بقيادة علي باشا ورفعت بك من أجل إخضاع ومعاينة بعض الشيوخ والأعيان الغامديين والزهرانيين^(٢)، وفي عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٣م) أرسلت قوات للإشراف والعثمانيين من الحجاز عبر منطقة الباحة وذلك من أجل قمع بعض الثورات المحلية في بلاد بني شهر وبني عمرو وبلقرن وما جاورها^(٣).

وفي عام (١٣٢٠، ١٣٢١هـ/١٩٠٢، ١٩٠٣م) أرسلت متصرفية عسير بعض الجيوش العثمانية إلى بلاد غامد وزهران، ودارت معارك بين أهل البلاد الأصليين وتلك الجيوش الغازية، وكانت الغلبة في معظم الأوقات للغامديين والزهرانيين، بل تطورت تلك المعارك إلى قتل قادة الجيش العثماني مثل أحمد باشا ومساعدته وكثير من العساكر العثمانيين^(٤)، وفي عام (١٣٢١هـ/١٩٠٣م) أصبحت القوات العثمانية في الباحة غير قادرة على ضبط البلاد، بل صارت عاجزة عن حماية نفسها، ومن ثم انحسروا على أنفسهم، وتحول اتصال الأعيان والمشايخ من غامد وزهران مع الشريف في مكة المكرمة^(٥).

(١) لقد تولى المتصرفية العثمانية في أباها (عسير) ستة عشر متصرفاً هم: (١) رديف باشا (٢) أحمد مختار باشا. (٣) عثمان بك (٤) حيدر بك (٥) أحمد فيضي باشا. (٦) تحسين باشا. (٧) رفعت باشا. (٨) محمد أمين باشا. (٩) يوسف باشا. (١٠) أمين باشا. (١١) موسى كاظم باشا. (١٢) إسماعيل حقي باشا. (١٣) كاظم باشا. (١٤) سليمان شفيق باشا. (١٥) علي حيدر بك. (١٦) محي الدين باشا. للمزيد انظر غيثان بن جريس. أباها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ص ٥٤. وإيجاد تراجم مطولة لهؤلاء الحكام وما قاموا به من جهود وأعمال سلبية وإيجابية في كثير من بلاد تهامة والسراة موضوع يستحق أن يفرده العديد من البحوث والدراسات، ونحن على يقين أن في أراشيف مصر وتركيا الكثير من الوثائق التي تصب في خدمة هذا الموضوع.

(٢) استطاعت تلك الحملة العثمانية القبض على بعض شيوخ غامد وزهران وحبسهم، بل فرضوا عليهم ضرائب وخدمات أخرى عديدة يقدمونها للجيش العثماني. للمزيد انظر علي السلوك. غامد وزهران، السكان والمكان، ص ٢١٧.

(٣) المرجع نفسه، ٢١٧، ٢١٨. انظر أيضاً: موسوعة المملكة العربية السعودية، مج (١٦)، ص ١٦٥.

(٤) المراجع نفسها.

(٥) المراجع نفسها. وللمزيد انظر، إبراهيم أحمد الحسين. غامد وزهران وانتشار الأزدي في البلدان (جدة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ج ١، ص ٣٠٤ وما بعدها. والواضح أن بلاد غامد وزهران في عهد النفوذ العثماني الأخير (١٢٣٧، ١٢٨٩هـ) كانت متأرجحة فأحياناً تقع الثورات فيها من قبل الحجاز وربما ذلك لقربها من مكة والطائف، وأحياناً من عسير، والملاحظ أن القوات العثمانية في الحجاز كانت أفضل من عسير في ضبط البلاد الغامدية والزهرانية للقوات العثمانية، وموقع منطقة الباحة السياسي والإداري في القرنين (١٣، ١٤هـ/٢٠١٩م) غير ثابت فأحياناً يتبعون للحجاز وأخرى لعسير، وهذا التآرجح لحقهم إدارياً في عصر الدولة السعودية الحديثة فتارة يتبعون للطائف أو مكة أو بيشة أو أباها أو الرياض أو جدة، وربما في الثلاثين سنة الأخيرة بدأ وضعهم الإداري يستقر أكثر مما كان عليه من قبل. وذلك بفتح مؤسسات إدارية رئيسية في بلادهم تقوم على خدمة البلاد والعباد.

وفي عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) ظهر السيد محمد بن علي الإدريسي في صبيا بمنطقة جازان^(١)، ومد نفوذه إلى نواح عديدة في بلاد تهامة والسراة، وقد وصلت دعوته إلى بلاد غامد وزهران، فلم يكن على بعض شيوخها الرئيسيين مثل: عبد العزيز الغامدي، وراشد بن جمعان بن رقوش إلا الذهاب عام (١٣٢٨هـ/١٩١٠م) مع وفود قبائل سرورية وتهامية أخرى حتى قدموا على الإدريسي في صبيا، وقدموا له الولاء والطاعة^(٢)، وفي العام نفسه أرسل السيد الإدريسي عامله وقائد جيشه السيد مصطفى بن محمد النعمي إلى بلجرشي في بلاد غامد^(٣)، فأقام بينهم بعض الوقت، ثم عاد إلى أبها من أجل المشاركة في محاصرة الإدريسي لأبها، ولكن ذلك الحصار لم يستمر لأن الشريف حسين بن علي خرج من الحجاز بأمر من العثمانيين وفك حصار الإدريسي عن أبها عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)^(٤)، وبالتالي عادت بلاد غامد وزهران إلى ولاية الشريف حسين في مكة^(٥).

ومنذ عام (٢٧-١٣٢٨هـ/١٩-١٩٢٠م) مدت الدولة السعودية الحديثة نفوذها إلى أجزاء من بلاد تهامة والسراة مثل: عسير وما جاورها، وتاريخ ضم عسير إلى الدولة السعودية مكتوب في كثير من البحوث والرسائل والدراسات^(٦). أما بلاد الباحة فالوصول إليها كان عن طريق قادة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل في بيشة وتربه والخرمة ورنية أمثال: سلطان بن بجاد، والشريف خالد بن لؤي^(٧) اللذين اتصلا ببعض

(١) لمزيد من التفاصيل عن السيد محمد الإدريسي ودعوته في جازان وانتشارها في أصقاع عديدة من البلاد التهامة والسروية، انظر: العقيلي، تاريخ المخلاف، ج٢، ص ٦٢٦ وما بعدها، أميرة علي المداح. المخلاف السليمانى تحت حكم الأدراسة. رسالة دكتوراة من قسم التاريخ. جامعة أم القرى (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ص ١١ وما بعدها.

(٢) انظر: السلوك، غامد وزهران، ص ٢٢٢. للمزيد انظر: العقيلي، تاريخ المخلاف، ج٢، ص ٦٢٦ وما بعدها.

(٣) للمزيد عن حصار الإدريسي لأبها انظر: يوسف حسن العارف. أضواء على مذكرات سليمان شفيق باشا (متصرف عسير) (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ص ٧٠ وما بعدها. ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٦، ص ٦٣.

(٤) من يتابع تطور تاريخ مكة السياسي والحضاري منذ فجر الإسلام حتى العصر الحديث يجد أنها على صلات قوية وممتدة مع حواضر الحجاز الكبرى مثل: الطائف وجدة والمدينة المنورة. ومقارنة أوضاع هذه البلاد وصلاتها مع ما يليها جنوباً مثل: الباحة، وعسير، وجازان، ونجران يجدها محدودة وأحياناً نادرة بعكس علاقتها مع بلاد الحجاز القديمة والقوية. وهذا الموضوع جدير بالبحث والدراسة، نأمل أن نرى من يتصدى له ويخرجه في كتاب أو رسالة علمية أكاديمية، مع أنه يستحق دراسات وبحوث عديدة.

(٦) من خلال الاطلاع على قوائم المكتبات المركزية والعامية في البلاد السعودية، وفي عدد من مراكز البحوث والمكتبات العلمية المحلية والإقليمية والدولية نجد عشرات بل مئات الدراسات التي ذكرت دخول منطقة عسير تحت لواء الملك عبد العزيز، ومن المؤكد أنه لا زال هناك وثائق وروايات جديدة لم تشر وربما لم توجد ونأمل أن نرى من يجمعها ويدرسها.

(٧) سلطان بن بجاد والشريف خالد بن لؤي يستحقان دراستين أكاديميتين توضح سجلهما التاريخي قبل انضمامهما إلى الملك عبد العزيز وبعده. كما أن خالد بن لؤي يستحق أن يفرده له دراسات عديدة توضح أعماله عندما كان يعمل مع الشريف الحسين بن علي، وما هي الأسباب التي جعلته يترك الشريف ويلتحق بابن سعود ثم أعماله في محاربة أهل غامد وزهران وكيف تم حرق بعض قرى غامد مثل بلجرشي وغيرها. وهذه موضوعات مازالت تستحق البحث والدراسة، ونأمل أن يظهر في المستقبل من يدرسها دراسة علمية أكاديمية.

شيوخ زهران وغامد يدعونهم إلى الدخول في حكم ابن سعود، بل إن الإمام عبد العزيز نفسه أرسل العديد من الرسائل إلى شيوخ غامد وزهران يحثهم على مراجعة القائد خالد بن لؤي في جميع أمورهم، وفي آخر عام (١٣٢٨هـ/ ١٩٢٠م) خرج وفدان من زهران وغامد وقابلا خالد بن لؤي في تربه وأعطوه البيعة للملك عبد العزيز^(١).

ومن بعد عام (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م) ساهمت غامد وزهران في توحيد البلاد السعودية، فقد شاركوا مع الأمير فيصل بن عبد العزيز الفيصل عندما ذهب إلى عسير وسيطر عليها^(٢). كما شاركوا في حصار جدة عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م)، واشتركوا أيضاً في القضاء على تمرد عبد الله بن فاضل شيخ بني مالك جنوب الطائف عام (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، وشاركوا أيضاً في قمع الحسن الإدريسي في جازان عام (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م)^(٣)، كما أنهم لم يتوانوا في دفع زكواتهم لجباة الدولة السعودية، وكذلك الالتزام بدفع حصصهم في الجهاد في أثناء توحيد البلاد^(٤).

وكانت بلاد غامد مرتبطة إدارياً عام (١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م) ببيشة، وقبل ذلك التاريخ كانت مرتبطة بإمارة تربه^(٥)، أما سراة زهران فقد ربطت بالطائف منذ عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م)، وكانت من قبل مرتبطة بإمارة تربة^(٦). أما الأجزاء التهامية من غامد وزهران فكانت منذ عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) حتى أوائل الخمسينيات من القرن الهجري الماضي مرتبطة بإمارتي القنفذة والليث^(٧). وفي عام (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م) أنشئت إمارة مستقلة في زهران، تراجعها عموم قبائل غامد وزهران، وأول أمير لها هو الأمير تركي بن

- (١) مازالت هناك مئات الوثائق الجديدة وغير المنشورة التي تصب في تاريخ بلاد غامد وزهران في أثناء دخولهم تحت نفوذ الملك عبد العزيز، وكيف كانت صلاتهم مع الشريف الحسين بن علي في الحجاز
- (٢) عشرات الكتب والرسائل العلمية دونت تاريخ عسير الحديث وبخاصة في بداية الحكم السعودي الحالي كما فصلت الحديث عن حملات ابن سعود على بلاد عسير وجازان حتى دخلت في حكمه.
- (٣) تاريخ منطقة الباحة السياسي في بدايات الدولة السعودية الحديثة يستحق إلى أن يفرده كتاب أو رسالة علمية أكاديمية، ونأمل من مؤرخي بلاد غامد وزهران أن يتولوا هذا الموضوع بالبحث والدراسة.
- (٤) حسب علمنا أن تاريخ منطقة الباحة المالي والإداري والحضاري في عصر الملك عبد العزيز (١٣٣٨-١٣٧٣هـ/ ١٩٢٠-١٩٥٣م) لم يخدم ولم يُدرس بطريقة علمية أكاديمية، ونأمل من طلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بجامعة أم القرى، والباحة، والملك خالد أن يتولوا هذا الموضوع بالبحث العلمي الجاد.
- (٥) بلاد بيشة وتربه وما بينهما تستحق دراسات تاريخية وحضارية متعددة، وذلك لقدمهما التاريخي، وما جرى فيهما من أحداث تاريخية وحضارية عبر عصور التاريخ القديم والإسلامي المبكر والوسيط والحديث. وهاتان البلدتان جديرتان بأن يصدر عنهما عدداً من الكتب والبحوث والرسائل العلمية.
- (٦) التاريخ الإداري والمالي الحديث لبلاد الباحة وتربه ورنية والخزمية والطائف وصلاتهم مع بعضهم البعض تستحق إلى أن يصدر عنها دراسات أكاديمية موثقة.
- (٧) القنفذة والليث من حواضر بلاد تهامة، ولها سجل تاريخي جيد في المجالين السياسي والحضاري عبر عصور التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط والحديث. وهاتان البلدتان لم تخدمتا بحثياً، ونأمل أن نرى مؤرخين جادين منصفين يخرجوا عنها بعض الدراسات الأكاديمية الرصينة.

محمد الماضي، واستمرت في مقرها في قرية الظفير حتى عام (١٣٧١هـ/١٩٥١م)، ثم نقلت إلى بلجرشي وبقيت هناك إلى عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، ثم نقلت من بلجرشي إلى مدينة الباحة لتوسطها بين غامد وزهران، وما زالت موجودة بها حتى الآن تحت مسمى (إمارة منطقة الباحة) (١).

وقد تعاقب على إمارة منطقة الباحة منذ نشأتها عام (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) حتى الآن أربعة عشر أميراً هم: (١) تركي بن محمد الماضي. (٢) فهد بن فيصل آل سعود. (٣) ناصر بن موينع. (٤) عبد الرحمن بن أحمد السديري. (٥) فهد بن باز. (٦) إبراهيم بن عبد الله بن عرفج. (٧) محمد بن صالح العذل. (٨) عبد الله بن سعيد بن جريد. (٩) عبد العزيز بن سويلم. (١٠) سعود بن عبد الرحمن السديري. (١١) إبراهيم بن عبد العزيز. (١٢) إبراهيم محمد الزيد. (١٣) محمد بن سعود بن عبد العزيز آل سعود. (١٤) مشاري بن سعود بن عبد العزيز آل سعود (٢).

ثالثاً: صفحات من تاريخ الباحة الحضاري (ق١٣-١٤هـ/١٩-٢٠م):

تم جمع مادة هذا المحور من مصادر عديدة مثل: (١) أوراق ومذكرات ووثائق محلية جمعت خلال العقود الثلاثة الماضية، وأصولها أو صورها توجد ضمن مكتبة الباحث (٢). بعض بحوث التخرج لطلاب قسم التاريخ في كلية التربية، فرع جامعة الملك سعود خلال العقد الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م) (٤). (٣) روايات وأقوال بعض المسنين في

(١) التاريخ الإداري لمنطقة الباحة في عصر الدولة السعودية الحديثة جدير بالبحث وهذا الموضوع يستحق أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية أكاديمية. للمزيد انظر: غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير)، ج٥، ص١١٨ وما بعدها.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هؤلاء الأمراء انظر: غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٥، ص١١٨-١١٩، موسوعة المملكة العربية السعودية، مج (١٦)، ص١٦٩. وكل واحد من هؤلاء الأمراء يحتاج إلى ترجمة مطولة تذكر فيها إسهاماته الحضارية في منطقة الباحة خلال فترة إمارته، ومن المؤكد أن أرشيف الإمارة يحوي الكثير من الوثائق التي تصب في خدمة هذا الموضوع، كما أن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتعليمي والتنموي لمنطقة الباحة منذ عام (١٣٥٠-١٤٣٩هـ / ١٩٣٠-٢٠١٨م) يستحق أن يصدر عنه عشرات البحوث والدراسات العلمية والأكاديمية. وهذا من مسؤوليات جامعة الباحة التي يجب عليها إنشاء مراكز بحثية متخصصة بهذا الجانب، كما يجب عليها أيضاً تشجيع الأكاديميين والباحثين العاملين فيها ليقدموا الأوطان الغامدية والزهرانية علمياً وهذه من واجباتها الرئيسية التي يجب العمل على تحقيقها.

(٣) يوجد ضمن مكتبة الباحث مئات الوثائق أو المذكرات الخاصة بتاريخ بلاد تهامة والسراة خلال القرون الهجرية الماضية، ولبلاد الباحة نصيب لا بأس به من هذه المصادر المحلية.

(٤) هناك بحوث عديدة غير منشورة عن منطقة الباحة ومن أهمها: منطقة الباحة (بلاد بني عمر وغامد وزهران) تاريخ وحضارة خلال القرنين (١٣٠١هـ/١٩٨٢م)، لعبد الله بن علي بن سالم العمري. وهو بحث تخرج من قسم التاريخ بفرع جامعة الملك سعود بأبها عام (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، تحت إشراف أ. د. غيثان بن علي بن جريس. ورقمه في مكتبة الباحث (٣٢). (٢) محافظة المخوة خلال القرن (١٤هـ/٢٠م)، من إعداد محمد درويش الغشام الغامدي، وحمدني عامر موسى العماري، وعلي محمد علي الغامدي. بحث تخرج من قسم التاريخ. جامعة الملك سعود بأبها عام (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). تحت إشراف أ. د. غيثان بن جريس ورقمه في مكتبة الباحث (١٦٨).

منطقة الباحة، بالإضافة إلى بعض الكتب المطبوعة والمنشورة عن نواح عديدة في بلاد تهامة والسرارة خلال العقدين الهجريين الماضيين. وفي الصفحات التالية نورد بعض التفصيلات عن العناصر التالية:

١- صور من الحياة الاجتماعية :

(*) اتضح لنا أن الجنس العربي القحطاني اليماني هو الغالب على أصول قبائل غامد وزهران، ويوجد بينهم بعض الأجناس العربية العدنانية^(١) والفاحص للتاريخ السياسي والحضاري الغامدي والزهراني خلال القرون الماضية المتأخرة يجد أنه وفد إلى هذه البلاد بعض العناصر غير العربية مثل: الأفارقة، والأتراك وغيرهم من بلدان العالم الإسلامي وغير الإسلامي^(٢)، ومنهم من أقام في هذه البلاد لفترات قصيرة ثم غادروها^(٣)، وآخرون وهم قلة مكثوا فيها ومع مرور الزمن صاروا من شرائح المجتمع الباحوي الرئيسية^(٤).

(*) ومجتمع منطقة الباحة يتكون من أسر وفخوذ وقرى والسائح في هذه البلاد يرى القرى القديمة متناثرة في كل مكان، والدارس لطبوغرافية تلك القرى يلاحظ حصانة مواقعها، وتقارب أزقتها ومنازلها، وبساطة مرافقها، وهذا يعكس لنا عدد من الأمور التي نجمها في النقاط التالية :

- أ . فقدان الأمن في السابق جعل أهل البلاد يتعاونون ويتقاربون ويتآلفون في نظام حياتهم وكسب أرزاقهم .
- ب . بساطة الحياة وقلة ذات اليد دفعت الناس إلى الرضا بالقليل، فلا مبالغة في بناء دورهم، ولا رغبة في الذهاب بعيداً عن أهلهم وقراهم^(٥).

(١) هذا ما عثرنا عليه في كتب بعض الأنساب المبكرة وبعض المذكرات والوثائق الموجودة في مكتبتنا العلمية. وقد يأتي يوم (ياذن الله) فنخرج جميع هذه المصادر التاريخية في كتاب مطبوع ومنشور .

(٢) نلاحظ أن بلاد الحجاز كانت على علاقات سياسية وحضارية مستمرة مع بلاد غامد وزهران، ومن ثم فإن بعض القوى العسكرية في الحجاز كانت تمد نفوذها إلى بلاد غامد وزهران، وبعض من أفراد تلك الجيوش من عناصر تركية وإفريقية وغيرها . كما أن التجارة كانت نشطة بين موانئ البحر الأحمر والحجاز، وكان يرتاد أسواق غامد وزهران بعض التجار وهم من عناصر غير عربية . وللمزيد من التفصيلات عن طبقات المجتمع في منطقة الباحة انظر : غيثان بن جريس . القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥، ص ١٦٨ - ١٧٣

(٣) للمزيد انظر: المرجع نفسه .

(٤) الذهاب الأيب في بلاد غامد وزهران اليوم (تهامة وسرارة) يلاحظ بعض العناصر وهم قلة من فئات غير عربية، وبخاصة في الأجزاء التهامة، كما أن المتأمل في بعض المصادر والوثائق الخاصة بمنطقة الباحة منذ القرن (١٢هـ/١٨٠١م) يجد معلومات متناثرة تؤكد مجيء بعض العناصر غير العربية إلى هذه البلاد واستقرارهم بها حتى صاروا ضمن نسيج مجتمع الباحة العام . .

(٥) مقارنة مواطن الاستيطان اليوم مع أوضاع الناس قديماً يجد مبالغة الناس في وقتنا الحاضر في بناء المنازل ومرافقها، بل صار الكثير منهم يحرص على الاستقلال في مسكنه ومطعمه ومشربه وشؤون حياته. وهذا نتيجة للأمن السائد في الأوطان والمال والخير الكثير الموجود في أيدي الناس . للمزيد انظر: ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

ج - أفراد القرية الواحدة وأحياناً القرى المتقاربة ينتسبون في جد واحد وربما في جدين أو ثلاثة فقط، ومن ثم فهم أسر متقاربة في النسب وفي الموطن، وكان لهم من الأعراف والنظم والتقاليد ما يجعلهم متكاملين متوافقين متكاتفين في شؤون حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية^(١).

(*) والعمران في منطقة الباحة متنوع من القرى المكونة من منازل وحصون حجرية وغالبية هذه القرى في الأجزاء السروية^(٢)، ولا تخلو بعض القرى التهامية من منازل مبنية بالقش والأخشاب، ويطلق عليها عشش ومفردها عشة^(٣)، وهناك أبنية أخرى مثل: القصور والحصون في القرى أو على رؤوس الجبال أو في بعض الأودية والهضاب^(٤)، وكذلك المساجد، والأسواق، والمقابر، والكهوف، والآبار، والمدرجات الزراعية، والعيون، والأحمية، والسدود والمصدات الزراعية وغيرها^(٥).

والحديث عن العمران، وأدواته والوسائل المستخدمة في البناء، والثقافة السائدة بين الغامديين والزهرانيين في ميدان العمارة والتشييد موضوع كبير ويستحق العديد من الدراسات العلمية^(٦)، ومن يقارن بين أنواع العمارة قديماً وحديثاً فسوف يجد فروقاً كبيرة

(١) يوجد في مكتبة الباحث العديد من الوثائق والاتفاقيات التي يعود تاريخ بعضها إلى القرنين (١٢.١٢هـ/١٩٠٨م)، وبها الكثير من البنود والعقود والاتفاقات التي تنظم سير حياة الناس في القرية الواحدة أو في القرى المتعددة التي تعود في نسبها إلى فخذ أو عشيرة واحدة. ومثل هذه الاتفاقات أو القواعد الاجتماعية جديرة بالبحث والدراسة. نأمل من مؤرخي منطقة الباحة أن يجمعوا مثل هذه الوثائق التاريخية الحضارية ثم يقوموا بدراستها وتحليلها وتوثيقها.

(٢) السائح في سروات الباحة يلحظ عدداً من القرى القديمة التي تتكون منازلها من دور ودورين وربما بعضها يرتفع إلى أكثر من ذلك، ويوجد في بعض هذه القرى قصور أو حصون قديمة يصل ارتفاعها إلى أربعة أو خمسة طوابق، وبعضاً من هذه الحصون والقرى يعود تاريخها إلى القرون الإسلامية الوسيطة، أو إلى القرنين (١٢.١٢هـ/١٩٠٨م). كما يوجد في حوزة الباحث صور من بعض الصكوك أو الوثائق لبعض حصون ومنازل منطقة الباحة وتواريخها منذ قرنين أو ثلاثة.

(٣) للمزيد عن أنواع المنازل في منطقة الباحة انظر: غيثان بن جريس. القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥، ص ١٧٥ - ١٨٠، وانظر عبد الله بن سالم العُمري. منطقة الباحة .. خلال القرنين (١٤.١٣هـ/٢٠١٩م). بحث تاريخي غير منشور، قسم التاريخ، جامعة الملك سعود. فرع أبها (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص ٣٦.٣٣. وفي هذا البحث تفصيلات عن أنواع المنازل وأحجامها، وطريقة بنائها، وطرق استخدامها، والأيدي العاملة التي عمرتها، واختلاف أشكالها وموادها في البوادي والسروات وتهامية.

(٤) تم تدوين تفصيلات حول هذه الأبنية في كتاب: القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥، ص ١٧٥ - ١٨٠.

(٥) المرجع نفسه، ج ٥، ص ١٨٠ - ١٨٧. وتاريخ العمارة القديمة في منطقة الباحة ومقارنته مع أنواع العمارة الجديدة اليوم موضوع جديد ويستحق أن يخرج عنه عدد من الدراسات، ونأمل من جامعة الباحة، أن تنشئ كلية للعمارة ضمن منظومتها الأكاديمية حتى تقوم بدراسة أنواع العمارة في منطقة الباحة بل في عموم بلاد تهامة والسرارة. كما نأمل من المؤرخين الغامديين والزهرانيين أن يؤرخوا لأنواع العمارة في بلادهم.

(٦) إجراء دراسات مقارنة بين أنواع العمارة قديماً وحديثاً موضوع يستحق أن يتصدى له العديد من الباحثين المتخصصين الجيدين، بل إن الجامعات المحلية في عسير والباحة ونجران وجازان عليها مسؤولية كبرى لدراسة العمران وأنواعه وتاريخه في عموم بلاد تهامة والسرارة.

وجوهرية بين الماضي والحاضر، بل إن الأبنية والعمارة اليوم تختلف في كل شيء منذ البداية حتى النهاية، ناهيك عن أنواع العمران وأشكاله، وأدواته، والأيدي العاملة، وأثاث المنازل فكل ذلك يختلف تماماً عما كان يعيشه الأوائل في القرون الماضية المتأخرة^(١).

وفي الصفحات التالية نشير إلى نماذج من أدوات المنازل وأثاثها في القرون السابقة، التي انقرض معظمها، وأصبحنا لا نراه إلا في بعض المتاحف الشعبية الموجودة في عدد من مدن وقرى بلاد تهامة والسراة. وهذه الأدوات على النحو التالي. (١) السرير (القعادة): وهي مصنوعة من الخشب على شكل مستطيل ويتم تحبيلها بالحبال المصنوعة من السعف والطفى، وهذه الحبال تسمى بـ (الحديرة) حيث تصنعها بعض النساء بالمنطقة وتتخذ منها وسيلة لتأمين معيشتها، وهذه الحداير تصبغ بعدد من الألوان تكسب السرير منظراً جميلاً. ولم تكن هذه السرر تتسع لأكثر من نفر واحد، ولا تكفي لسد حاجة جميع أفراد الأسرة بل كان معظمهم ينام على الأرض، والبعض ينام مع أخيه على الكرسي إن كانوا من الأطفال (٢) المنبر (المقعد): مصنوع من نفس مادة الصنع للسرير، وليس هناك اختلاف إلا في الحجم والمساحة، حيث يكون على شكل مربع ويستخدم للجلوس من قبل الضيوف وكبار السن في المنزل، ولا سيما عند تناول الوجبة الغذائية، ويستخدم في حفلات الزواج فتجلس عليه العروس ليلة زفافها^(٢). (٣) الحصير: بساط كبير وجمعه: (حُصر) يضعه الأهالي كفرش للغرف والسطوح عند قدوم الضيوف، ويصنع من السعف وشجر الدوم. (٤) البسطة (المفتة): السفرة المستخدمة للطعام، وتصنع من نفس مادة الطفى، وشكلها دائري وربما مستطيلة أو مربعة. (٥) التفال: أشبه ما تكون بالمبسطة وتوضع تحت المطحنة لتلقي الحب المطحون وحجزه عن التراب. (٦) القفة: وعاء كبير تستخدم لحفظ الحبوب عند الحصاد، وحفظ اللحم في الولاثم، وتستخدم أيضاً لنقل الأغراض من السوق إلى المنزل وغيرها، ويصنع من الطفى. (٧) المنسف (الطبق): أشبه ما يكون بالصحن غير انه مقعر يستخدم لتقديم الخبز وبعض الأغراض الأخرى، وهناك أصغر منه في الحجم يسمى المحصل، وتصنع جميعها من مادة الطفى. (٨) الحفص (المخرجة) وعاء كبير بشكل مستطيل أشبه ما يكون بحفرة القبر، يصنع من الطفى ويستخدم في نقل السماد الحيواني والطين وغيره من الأغراض الأخرى. (٩) الزنبيل: وعاء صغير نسبياً يستخدم لنقل بعض الأغراض الشخصية، وربما استخدم لنقل المحاصيل الزراعية والطين أيضاً

(١) أما تاريخ وطريقة أنواع العمران الحديث فهو باب واسع جداً ويستحق إلى إنشاء أقسام أو كليات علمية أكاديمية تتولى دراسة عمران المناطق الجنوبية السعودية. والأمل في الجامعات المحلية أن تقوم بهذا العمل فهو يعد من واجباتها.

(٢) انظر: الكثير من هذه الأدوات موجودة عند بعض الأسر الزهرانية والغامدية، وأصبحت جزءاً من الموروث الشعبي لديهم.

(١٠) الجونة: أشبه ما تكون بالقدر الصغير، ولها غطاء خاص بها، وتستخدم لحفظ الأغراض الشخصية كالحلي والنقود. (١١) السجادة (المصلاة): مصنوعة من الطفي وتستخدم لغرض أداء الصلاة عليها. (١٢) المروحة (المشوفة): تستخدم للتهوية عند اشتداد الحر، وفي الأماكن المكتظة بالناس لجلب الهواء البارد وتسمى في بعض القرى بـ (المهفة). (١٣) التورة: وعاء للطبخ وهي مصنوعة من الطين. (١٤) المصب: بمنزلة القدر ويصنع منه المرق والحليب ويصنع من الطين. (١٥) المروب: ويستخدم لحفظ الحليب ومشتقاته ويصنع من الطين. (١٦) الزير: لحفظ الماء بارداً ويصنع من الطين. (١٧) الصحفة: صحن خشبي يصنع من شجر الغرب ويكون عليه نقوش جميلة ويستخدم للأكل، عندما يوضع فيه الطعام (العيش)، أو ما يعرف بـ (المشغوثة)^(١). (١٨) القدح: أشبه ما يكون بالقدر الصغير، ويصنع من الخشب، ويستخدم للماء والحليب ومشتقاته. (١٩) المهراس: ويستخدم لطحن البن والهيل والزنجبيل وما شابه ذلك، ويكون بعضها كبير الحجم، ويستخدم لطحن البارود، ومعه ما يعرف بـ (الودي) وهي اليد التي يطحن بها. (٢٠) الشبكة: أداة لتعليق الأشياء التي يخشى عليها من الحشرات إذا تركت على الأرض كالسمن وغيره. (٢١) القربة: تصنع من جلد الغنم والضأن، وتستخدم لجلب الماء من البئر إلى المنزل، وهي تساعد على بقاء الماء بارداً. (٢٢) الشكوة: تصنع من جلود الغنم الصغيرة، وتستخدم لمخض اللبن. (٢٣) العكة: تصنع من جلود البهم (صغار الغنم) وتستخدم لحفظ العسل والسمن، وقد يلجأ البعض لصناعتها من جلود القطط، وذلك لعدم استطاعة الفئران قرض هذا النوع من الجلد، بينما يسهل على الفأر قرض جلود الأغنام والتغذي على ما بداخلها من عسل وسمن. (٢٤) الدلو: يصنع من الجلد، ويستخدم لاستخراج الماء من البئر. (٢٥) الحبال: عدة أنواع منها ما يصنع من الطفي، وبعضها يصنع من ليف الأشجار، مثل شجر السلب، وحبال أخرى من جلود الجمال وغيرها، وتختلف في متانتها حسب نوعيتها وجودة الصناعة. (٢٦) الخرج: يصنع من الطفي، وربما من الصوف أو الجلد لوضع الأغراض به، ويوضع غالباً على ظهور الحمير. (٢٧) الشربة: (الدلة): مصنوعة من الطين، وتستخدم للقهوة، وتغطي فوهتها ببعض الألياف النباتية. (٢٨) المحقن: (القمع): مصنوع من الطفي، ويستخدم لصب السمن في العكاك، وصب الماء في القربة. (٢٩) المشهف: يستخدم لتحميم القهوة على النار. (٣٠) المعشرة (الطاولة): تصنع من الخشب، وتستخدم لوضع القهوة والطعام عليها، عند قدوم بعض الضيوف. وتسمى في بعض الأماكن بـ (التختة) أو (الطريزة). (٣١)

(١) هذا الوعاء ما زال مستخدماً في بعض المناسبات كالزواج وغيره، ويطلق عليه في بلاد بني شهر وبني عمرو (الصحفة)، وهي أحجام، والحجم الكبير يوضع فيه العيش المعروف بـ (المشغوثة) .

المطحنة : نوع صغير من الحجارة، يصل طولها إلى (٦٠) سم في عرض يتراوح بين (٣٠-٤٠) سم، ولها يد تُعرف بـ (الودي)، وتستخدم لطحن الحبوب، وتصنع في بعض القرى بمنطقة الباحة وقد تستورد من بعض مدن جازان والقنفذة وغيرها^(١). (٣٢) الرحي : اسم مشهور من قديم الزمن، تستخدم لطحن الحبوب، وهي قرص حجري دائري يصل قطره إلى أكثر من متر، ومثقوب من المنتصف، ويرفع على أربع قواعد حجرية. وعليه صخرة دائرية أخرى صغيرة يصل قطرها إلى (٣٥) سم أو (٤٠) سم وبها ثقب في المنتصف، وتوضع عصا في ثقب الحجرين وتحرك بشكل دائري لطحن الحب^(٢). ويصنع هذا النوع في بعض قرى منطقة الباحة مثل قرية دار الرمادة. (٣٣) : المقشاة : (المكشاة) : تصنع من الطفي وربما من بعض أغصان الشجر، وتستخدم لتنظيف المنزل. (٣٤) السفود (المخطافة) : مصنوعة من الحديد، وتستخدم لاستخراج ما يقع في الآبار من الدلاء أو الملابس وما شابهها، وتعرف أيضاً بـ (القشاشة) في بعض قرى منطقة عسير.

وهناك بعض الأثاث الذي كان مستخدماً في الماضي في المنازل، ويختلف في نوعه وجودته وعدده من منزل لآخر حسب الحالة الاقتصادية عند الناس آنذاك، ولاشك أن الظروف في الماضي كانت صعبة على أصحابها، إلا أنهم لم يستسلموا، بل بذلوا كل الجهود للتكيف مع بيئاتهم، ففي الأجزاء السروية لم يكن هناك حاجة لآلات التبريد، لأن الجو كان بارداً، بل الحاجة إلى أدوات التدفئة، فتجدهم يستخدمون النار بالإضافة إلى الملابس الثقيلة التي يُصنع بعضها من جلود الأنعام. أما في الأجزاء المنخفضة من المنطقة (تهامة)، ذات الجو الحار صيفاً، فليس هناك حاجة لوسائل التدفئة، بل حاجة الناس إلى البرد فكانوا يقومون برش جدران المنزل وأرضيته بالماء، ليحصلوا على جو بارد، بل يقوم البعض برش ملابسه والجلوس أمام الباب أو الشباك ليحظى بتيار هوائي بارد، ونجد من يقوم برش قطعة من القماش ثم يضعها على الشباك لتلطّف من حرارة الهواء الداخل، وهكذا كانت حياة الناس قاسية، فهم يستخدمون الماء في التكييف، على الرغم مما يواجهون من صعوبة رفعه وحمله من البئر إلى المنزل على ظهورهم أو ظهور الدواب^(٣).

(١) كثير من هذه الأدوات موجود في بعض المتاحف الشعبية الموجود في بعض مدن وقرى منطقة الباحة. المصدر: مشاهدات الباحث في نهاية عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م).

(٢) الرحي : أداة معروفة عند العرب من قبل الإسلام، وقد أشارت إليها كثير من كتب التراث الإسلامي، بل وجد بعضها في بعض المواقع الأثرية في نجران وعسير والقنفذة، وهي تتفاوت في أحجامها بين الكبير والصغير. شاهد الباحث عدداً من هذه الأرحية في مواقع أثرية ومتاحف عديدة في نجران وجازان وعسير.

(٣) لا ندعي ذكر كل شيء عن العمران في منطقة الباحة قديماً. وقد التقيت ببعض المسنين في غامد وزهران ورووا لنا تفاصيل عن بعض العادات والأعراف المعروفة في عالم البناء قديماً، كما وجدنا بعض الوثائق التي تذكر تفاصيل عن مواقع تم البناء عليها، وفيها ما وصل إلى أصحابها بالإرث، وأخرى بالشراء. وللمزيد من التفاصيل انظر غيثان بن جريس القبول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥ ص ١٧٥-١٧٨، عبد الله بن علي بن سالم العُمري، منطقة الباحة، ص ٢٧-٤٠. . محمد درويش الغامدي وآخرون، محافظة المخواة، بحث تاريخي غير منشور، كلية التربية، جامعة الملك سعود. فرع أبها (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، ص ١٦-٢٨.

(*) أمأطعمة وأشربة الغامديين والزهرانيين فكانت من ناتج مزارعهم وحيواناتهم^(١)، وربما جلبوا بعض الأطعمة عن طريق الصيد أو الشراء من الأسواق الأسبوعية^(٢)، وكان لديهم بساتين تُزرع فيها بعض الفواكه والخضروات مثل: التفاح، واللوز، والفركس، والتين، والطماطم، والخيار، والكوسة، والجزر، والخس، والجرجير وغيرها من المزروعات المحلية^(٣)، ولم تكن أنواع الأطعمة والأشربة متوفرة عند كل الناس، وإنما الفقر والجوع هما المسيطران على حياة السكان، وتفاوتت أوضاع الناس الاقتصادية، فالأغنياء ميسوروا الحال في وضع أحسن من الفقراء الذين لا يملكون شيئاً من حطام الدنيا^(٤).

ومن عادات أهل المنطقة أن كل أسرة لها سفرة واحدة من الطعام، حيث تصنعه النساء في المنزل، ريثما يحضر أفراد الأسرة من أعمالهم المتمثلة في الرعي والزراعة وغيرها، وعندما تجتمع الأسرة يوضع الطعام على سفرة واحدة (المبسطة) ويلتف حوله جميع أفراد الأسرة ابتداءً بالجد وانتهاءً بالحفيد، ويأكلون ما لديهم، وقد يكون الطعام قليلاً، بحيث لو وضع على المبسطة لأكل البعض وبقي البعض الآخر دون نصيب، ومن ثم تلجأ الأم الكبرى، أو رب الأسرة إلى تقسيم الطعام بينهم، ولاسيما الخبز واللحم، وينال كل واحد نصيبه، ويكون النصيب الأوفر لكبير الأسرة، وللابن المجتهد في عمله، أو المريض^(٥). أما في حالة قدوم ضيف على الأسرة، فإنه ينادى من ساحة المنزل باسم

(١) من الأطعمة القديمة في منطقة الباحة الخبز (الأقراص، أو القرصان) وتصنع من حبوب الذرة والحنطة والشعير والدخن، والقصيدة، والدغابيس: وهي من أطعمة غامد وزهران الرئيسية، والمعروفة بهذا الاسم في منطقة الباحة، وكذلك اللحوم. والأشربة مثل: اللبن والحليب، والمرق، والقهوة، والشاهي، والسنت، والزنجبيل. انظر: عبد الله بن علي بن سالم العُمري، ص ٤٢-٤١، ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢) في حوزتنا بعض الوثائق التي تذكر بعض الأطعمة الموجودة في أسواق منطقة الباحة خلال القرنين (١٤٠٢هـ)، مع ذكر أحجامها وأسعارها، وأماكن استيرادها، وأغلبها يصدر من الحجاز.

(٣) يوجد في منطقة الباحة، بل عموم بلاد تهامة والسراة الكثير من المزروعات والفواكه والخضروات. وهناك بعض الوثائق التي تشرح حماية بعض البساتين من اللصوص والطيور والحيوانات، وتفصيلات أخرى حول طريقة ري تلك المزروعات أو البساتين، وأنواع الفواكه والخضروات والمحاصيل الموجودة فيها. ونقول إن دراسة تاريخ الطعام والشرب في بلاد غامد وزهران خلال القرون (١٤١١هـ/٢٠١٧م) موضوع يستحق بأن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية، والجميل أن هناك كثيراً من الوثائق والقصص والروايات التي تصب في خدمة مثل هذا الموضوع. ونأمل أن نرى مؤرخاً أو باحثاً يتولى هذا الموضوع بالبحث العلمي الموثق.

(٤) أطعمة الناس وأشربتهم في النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م)، أفضل في الكمية والنوع والجودة، من العقود السابقة لعام (١٣٥٠هـ/١٩٣٠م)، لأن أحوال البلاد بدأت تسير نحو الاستقرار بعد دخولها في دولة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل، وقبل ذلك التاريخ كان الناس في حروب وصراعات وغارات، وذلك مما أثر في مزروعاتهم ومواردهم الاقتصادية، ومن ثم فالمستوى المعيشي كان متواضعاً جداً عما عرفه الناس في الفترة الممتدة من (١٣٥٠-١٤٠٠هـ/١٩٣٠-١٩٨٠م). المصدر: تم الاطلاع على عدد من الوثائق التي تعكس معيشة الناس منذ بداية القرن (١٣هـ/١٩م) حتى نهاية القرن الهجري الماضي (١٤هـ/٢٠م)، ومعظمها يصور ما أشرنا إليها.

(٥) هذه العادات عاصرناها في محافظة النماص خلال العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ/٢٠م) بل وسمعنا من آبائنا نفاً من هذه الروايات التي عاشها أبائهم وأجدادهم.

صاحب المنزل (يا فلان) فيواجهه الرجل بالترحيب، ثم يخرج من المنزل ليستقبله ويهيئ له المتكأ والمجلس المناسب، ويفرش له الفراش الذي يُدخِر للضيوف وغالبا ما يكون من الخصف، (الهدم أو الهتلة)، ثم يأخذ الأخبار من الضيف^(١)، وتقوم المرأة بتجهيز الوجبة للضيف، وتقدم له فيأكل بمفرده، وربما شاركه رب الأسرة في ذلك الطعام، وما بقي من الأكل يقدم لأفراد الأسرة الموجودة داخل المنزل، ويتصور الإنسان عندما نذكر كلمة وجبة أنها من الوجبات المعروفة في هذا الزمن، أو أنها كمية كبيرة من الزاد، على حين أنها في حقيقة الأمر لا تعدو عن كونها وجبة قليلة إلى حد كبير، فقد تتمثل في كسرة خبز مصحوبة بالقهوة أو السمّن، وربما تكون قليلاً من الحب أو السمسم أو غيرها .

(*) لا تختلف الألبسة والزينة في بلاد غامد وزهران عن عموم الألبسة في جنوب الجزيرة العربية، لأن معظمها يُجلب من الأسواق المجاورة وربما البعيدة كأسواق عسير أو جازان أو الطائف أو مكة المكرمة أو المدينة المنورة وغيرها^(٢)، وتتنوع الملابس حسب القدرة المادية، فالأغنياء يجلبون لأسرهم الملابس ذات الجودة الحسنة، ثم تتدرج نوعية اللباس حسب أحوال الناس، حتى نجد أن الفقراء يكتفون بما يسد حاجتهم وإن قل، بحيث لا يتعدى ستر العورة، ونظراً لعدم وفرة الألبسة في الأسواق بالشكل الذي يضمن وجودها باستمرار فقد يلجأ كثير من أهل تهامة والسراة إلى استخدام جلود مواشهم وأصوافها في صنع بعض الملابس التي تقيهم شدة البرد في السراة وتخفف من شدة الحر في تهامة^(٣) مع العلم أن أغلب هذه المصنوعات الجلدية تستخدم في السراة لحاجتهم إلى ذلك بسبب برودة الجو، ومنتجات الأصواف والجلود في تهامة تباع لأهل السراة ويشتري بها مواد غذائية أخرى، ومما أشار إليه بعض المؤلفين الأوائل أن سكان البلاد السروية

(١) هذه عادة عرفها العرب منذ القدم مازالت معروفة عند كبار السن في جنوبي البلاد السعودية، وهي أن القادم أو المسافر أو الضيف يروي سيرته القريبة أي من أين جاء ؟ وماذا يريد من زيارته أو قدمه ؟ وماذا واجه في طريقه ؟ وغير ذلك من الأخبار . للمزيد عن تاريخ الطعام والشراب في منطقة الباحة، انظر: ابن جريس. القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٥، ص ١٨٧ - ١٩٠، محمد درويش الغشام الغامدي وآخرون، محافظة المخواة، ص ٢٦-٢٩، عبد الله علي سالم العُمري، منطقة الباحة، ص ٤٥٤١ . وموضوع الطعام والشراب في القرنين (١٤٠١٣هـ/٢٠١٩م) يستحق أن يكون عنواناً لرسالة ماجستير أو دكتوراة .

(٢) الدارس لتاريخ التجارة في بلاد تهامة والسراة خلال القرون الماضية المتأخرة يجد أن الأسواق الأسبوعية المختلفة في هذه الأوطان تتبادل التجارات فيما بينها، وكانت الألبسة والأقمشة من السلع الرئيسية والمتبادلة. يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق التي تذكر سلعا متنوعة متبادلة بين أسواق الحجاز وعسير وجزان والقنفذة مع أسواق منطقة الباحة. ونقول إن دراسة تاريخ التجارة في تهامة والسراة خلال القرنين (١٤٠١٣هـ/٢٠١٠م) موضوع يستحق أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية أكاديمية .

(٣) للمزيد انظر غيثان بن جريس. عسير (١٤٠٠-١١٠٠هـ) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص ٦٥ وما بعدها . كما شاهدنا قبل أربعة عقود الألبسة المستخدمة في تهامة والسراة، وبعضها من الصوف والجلود .

الممتدة من الطائف إلى بلاد اليمن كانوا يصدرون إلى أسواق مكة والمدينة المنورة الحبوب المتنوعة، وذلك لبيعها أو مقايضتها مع سلع أخرى كالألبيسة والأقمشة^(١)، كما يذكر بعض كبار السن بالمنطقة الباحوية أنهم كانوا يذهبون بأحمال الجمال من تهامة والسراة إلى الطائف ثم مكة فيبيعونها هناك، ثم يعودون بأحمال أخرى من الملابس والسكر وبعض الأغراض الأخرى^(٢)، وتتنوع الملابس المستخدمة في منطقة الباحة حسب الجنس والعمر وهي على النحو التالي :

أ- لباس الرأس : اشتهرت المنطقة كغيرها من المناطق الأخرى بتغطية الرأس وهذا اللباس على ثلاثة أنواع (١) العمامة: ويلبسها الرجال منذ العصر الجاهلي، وهي قطعة من القماش وتكون - غالباً - ذات لون أبيض، وتلبس بطرق مختلفة حسب رغبة صاحبا، فالبعض يلفها حول رأسه، والبعض الآخر يطلقها على أكتافه ويثبتها بقطعة أخرى على رأسه، ومنهم من يضعها على رأسه ويلف أطرافها حول رقبتة، ونظراً لأنها تظهر مكانة الرجل في جماعته، وتزيد من وقاره، فلا ترى رجلاً إلا هو لابسها، بالإضافة إلى أنها تقي الرأس من حرارة الشمس وشدة البرد، وتضفي على لابسها المنظر الحسن، وينتشر لبسها بين الفقراء والأغنياء، ولا تزال العمامة من أفضل الهدايا التي تهدي إلى كبار السن في منطقة الباحة وما جاورها^(٣)، (٢) القبع: يلبسه غالباً الأطفال ذكوراً وإناثاً ليقهيم شدة البرد وحرارة الشمس، وهو مصنوع من القماش أو الصوف ويوضع تحت العمامة ويسمى (القبعة) أو الطاقية، كما أن بعض الرجال يستخدمون ما يسمى بالعقال، ويوضع على العمامة لتثبيتها على الرأس، ونظراً لندرته في الماضي كان البعض منهم يستخدم قطعة من القماش بدلاً من العقال^(٤)، (٣) العصابة (المعصبة) : وتستخدم في صفوف النساء لتغطية الرأس كنوع من الحجاب الإسلامي، ويكون بألوان متعددة فمنه الأسود، والأحمر، ومنها ما يجمع ألواناً متعددة والغالب استعمال اللون الأسود، ويسمى (قتاعاً)، ومنها ما هو بألوان زاهية، ويسمى (شرشفاً) ويلبس على الرأس ويسدل على الأكتاف والصدر والظهر، أما العصابة فتوضع على الرأس وهي أشبه ما تكون بالفترة (العمامة) الحديثة التي يلبسها الرجال، ومن القناع الأسود ما يقطع كقطع متوسطة المساحة وتستخدم كغطاء

(١) انظر أبا الوليد الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها (مكة المكرمة، ٥١٤٢٢، ١٩٨٢م). وللمزيد انظر: رحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة، والمقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم، وابن الجاور.

(٢) مقابلة الباحث مع بعض المسنين في منطقة الباحة خلال شهر ذي الحجة عام ١٤٣٢هـ/٢٠١٢م).

(٣) للمزيد عن تاريخ العمامة، انظر: غيثان بن جريس " العمامات تيجان العرب " مجلة بيارد الصادرة من نادي أبها الأدبي، العدد (٨) (المحرم، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ٦٦ وما بعدها، المؤلف نفسه. بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٤١٣هـ/٢٠١٩م) (الطبعة الثالثة) ص ١٢٩ وما بعدها.

(٤) المراجع نفسها. للمزيد انظر: عبد الله علي سالم العُمري، منطقة الباحة، ص ٤٧،٤٦، محمد درويش الغامدي وآخرين، محافظة المخوة، ص ٤٢ وما بعدها.

للوجه، وقد تطور هذا الغطاء فأصبح منه ما يسمى بـ (الشيلة) أو البرقع ويغطي معظم الوجه ما عدا العينين، وهناك نوع آخر يسمى بـ (النقاب) ويغطي ما تحت العينين، وقد يلبس القبع المصنوع من الطفي خاصة عند مزاوله مهنة الرعي^(١).

ب- لباس البدن الداخلي: لم تكن الألبسة الداخلية متوفرة بالشكل الذي يتيح للجميع لبسها، ومع ذلك فالتقليل من الناس يملكها وبالأخص الأغنياء وميسورو الحال، فالبعض منهم يلبس ألبسة داخلية مثل السروال والإزار، والغالبية لا يملكون السراويل، وإنما يكتفون بالإزار وهو الجزء الذي يغطي نصف الجسم الأسفل، ومن يملك سروالاً فإنه يلبسه في الولائم والأسفار وعند نزول الأسواق فإذا عاد إلى منزله خلعه وعلقه لمثل هذه المناسبات واكتفى بلبس الإزار، وكذلك الحال بالنسبة لكثير من النساء، بل إذا عزمت إحداهن على السفر ترسل أحد أبنائها إلى إحدى جاراتها أو قريباتها فتستعير منها سروالاً حتى تعود من رحلتها، وتجدر الإشارة إلى أن بعض النساء في تهامة كن يلبسن الملابس الخفيفة من نفس القماش الذي تصنع منه الأقتعة السوداء حالياً، ونظراً لكونه خفيفاً وشفافاً يظهر ما تحته عندما يخاط على شكل (مدرعة)، فإن النساء وبخاصة الشابات يلبسن تحته ما يسمى بـ (صديرية) أو فتيلة ذات ألوان زاهية تغطي نصف الجسم الأعلى وتستتر ما تحت المدرعة، وهذه الفتائل مازالت تفصل في منطقة الباحة وتلبسها كبيرات السن من النساء في المناسبات كالأعياد والأعراس والولائم وغيرها^(٢).

ج- الملابس الخارجية: كان الغالب والمنتشر في بلاد الباحة لبس الإزار كالإحرام والفضة الجاوية والمصنف والثوب المطرز وغيرها من الأزر الأخرى، كالحوكة التي تصنع من القماش الأبيض وتستخدمها نساء السراة لتغطية مفاتن المرأة، وما زال بعض المسنات في السراة يستخدمنها إلى يومنا هذا، مع وجود ما يغطي به الجذع لدى الرجال كالفتيلة، وهذا منتشر بين الرجال في تهامة، أما الرجال في السراة فقد كانت أحوالهم أحسن من أهل تهامة، فتراهم يمتلكون بعض الثياب الثقيلة، وبعض الفرو والجباب المصنوعة من الصوف أو الجلد، وبعض السراويل، أما الرجل الذي عنده ثوب من أهل تهامة فلا يستخدمه إلا في حضور الأفراح والمناسبات والولائم، ويكتفي فيما عدا ذلك بلبس الإزار، وكذلك النساء في تهامة فلا يعرف عندهن إلا الأزر المعروفة بـ (المدرعة) المصنوعة من القماش الأسود الخفيف، أما النساء في السراة فيلبسن الملابس الثقيلة والمشغولة بالحريز

(١) المراجع نفسها، بالإضافة إلى جولات الباحث في منطقة الباحة في نهاية عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م).

(٢) للمزيد انظر: ابن جريس، بلاد بني شهر وبني عمرو، ص ١٣٠ وما بعدها، للمؤلف نفسه، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٦٧-٧١.

والسلك الذهبي أو المدار، وهو عبارة عن جبة من الصوف الملون^(١). أما القدمان فلم يكن معروفًا لديهم لباس خاص سوى ذلك النعل الذي كان يصنع من جلود الأنعام أو القماش القديم لتغطية الأقدام^(٢).

أما أدوات الزينة عند الرجال فتتمثل في أنواع السلاح كالسيوف والجنابي والخناجر والسكاكين ذات السبته والمشاعيب (العصي)^(٣) وبعض البنادق القديمة، بالإضافة إلى الأدوات الشخصية، كالطيب الذي يستخرجونه من الريحان والكادي، مع العلم أن بعض الرجال قد (يتختن) يتغرز بالريحان والكادي على رأسه، والبعض يستخدم الحناء في اليدين والقدمين خاصة حديثي الزواج، وبعض كبار السن يخضبون لحاهم بالحناء، وتكحل عيونهم بالكحل، ولبس بعض الخواتم الفضية^(٤).

أما النساء فكان لهن من الزينة أوفر نصيب، حيث تبدأ المرأة بالاغتسال قبل الخروج للمكان المقصود، ثم تستخدم بعض البخور خاصة ما يسمى بـ (السُعدى) وهونبات يزرع في المزارع، وكذلك يختضن بالحناء ويستخدمن الكحل، ثم تضفر المرأة شعرها مستخدمة الطيب المخلوط من (زر ومحلب وغيره)، حيث يسحق ممزوجاً بالماء ويوضع على الرأس، وتستخدم النساء الريحان والبرك والكادي، يجمع ويحزم ثم يوضع على الرأس ويلف عليه بعصابة أو ما شابهها فتظهر تلك الحزمة من وراء الملابس وكأنها مخدة تكسبها رائحة جميلة، وتسمى هذه الحزمة بـ (العكرة). وكان النساء يستخدمن ألبسة من الفضة مثل الأحزمة والعصائب والتيجان والعقود المنظومة من الفضة وتسمى بـ (الثمانين) ومفردها (ثمانية)، وكذلك ما يوضع في الأيدي مثل (الشمالي) ومفردها (شميلية)، و (الأوضاع) ومفردها (وضع)، و (المسك) ومفردها (مسكه) وجميعها فضية، وبعض النساء يلبسن الحجول ومفردها (حجل) وتوضع في الأرجل، وخزام من الذهب في الأنف، والخرصان ومفردها خرص، وتلبس العقود المنظومة من الخرز المسمى بـ (الظفار) نسبة إلى مدينة ظفار اليمنية، ويلبسن ما يسمى بـ (لثة) وجمعها (لثبات) في عنق المرأة، ومنها (البتوت) ولونها أصفر وتكون مزدوجة ومفردها (بت)، وتوضع في اليد، ويصحب ذلك الخواتم والدبل الفضية، ولا يملك كل النساء هذه الأنواع، بل وجودها

(١) المراجع نفسها، انظر أيضاً: محمد درويش الغمامي وآخرون، ص ٤٢ وما بعدها.

(٢) المراجع نفسها، للمزيد انظر، عبد الله بن علي سالم العمري، ص ٤٩٠٤٨.

(٣) المشاعيب، ومفردها مشعاب، وهو العصا أو الهراوة التي يحملها الرجل في أسفاره وأحياناً في الاتكاء عليها إذا كان مريضاً أو كبيراً في السن.

(٤) بعض أدوات الزينة القديمة عند النساء أو الرجال توجد في بعض المتاحف الشعبية في بلاد غامد وزهران وعند بعض المناطق الأخرى المجاورة مثل: عسير، وجازان، والقنفذة. مشاهدات الباحث وجولاته في هذه المناطق خلال الماضية المتأخرة.

حسب الحالة المادية للأسرة، وقد تستعير المرأة من إحدى قريباتها شيئاً من ذلك، وربما تكون معها منذ زواجها^(١)، ومن المعلوم أن لبس هذه الأدوات والزينة غالباً في المناسبات والأفراح ومن أهمها الأعياد والزواج والختان^(٢).

(*) الزواج من عادات أهل الباحة، فهو يزيد الترابط الأسري بين الأفراد والجماعات، ولكن هذه العادات تختلف من مكان لآخر سواءً في طريقة الخطبة أو الزواج^(٣)، وسوف نوضح ذلك في الصفحات التالية:

(أ) **الخطبة** : في بعض الأماكن تتم الخطبة عن طريق النساء، وذلك عندما تخرج المرأة في زواج أو في زيارة مهما كان نوعها، فتقابل بعض النساء اللاتي يصطحبن معهن بعض بناتهن، فعندما ترى أم الولد أو أخته أو قريبتها تلك البنت وترى أن فيها من الأدب والجمال ما يناسب أن تكون زوجة لذلك الشاب^(٤)، فإنها تقترب من أم الفتاة فتسأل عما إذا كانت ابنتها متزوجة أو مخطوبة، فإذا علمت أنها ليست مخطوبة أخذت في محاورتها حتى يحصل الاتفاق بين النساء، ثم تذهب كل واحدة منهن إلى محارمها، فأم البنت أو قريبتها تخبر ولي تلك البنت بأن ابن فلان له رغبة في الزواج من ابنتنا، وكذلك تعود أم الولد أو قريبتها إلى الولد ووالده فتخبرهما أنها وجدت امرأة من آل فلان وتعدد محاسن البنت التي اختارتها، وأحياناً تبالغ في مدح الفتاة لكي تشجع الولد على الإقدام، وبعد ذلك تأتي الخطوة الثانية من الولد وأبيه حيث يذهبان لإكمال ما بقي من التقاليد^(٥).

وفي أماكن أخرى يقوم الرجل الراغب في الزواج بالتحدث مع بعض أصدقائه، وهم يرشدونه إلى الأسرة الصالحة التي يرون أنها تصلح لأن يتزوج منها، فإما أن يقوم هو بالتقدم لتلك الأسرة أو يوسط أصحابه أولئك الذين نصحوه ليكونوا هم الجسر بينه وبين تلك الأسر، وقد يرسل بعض جماعته أو عائلته لبحث ذلك الأمر^(٦). وهناك طريق

(١) الناظر في كثير من الوثائق المحلية في منطقة الباحة وما جاورها من مناطق الجنوب يجد أن المرأة عند زواجها لا بد أن يشتري لها زوجها وأهلها بعض أدوات الزينة مثل الخواتم والأخراص والعصائب والألبسة وغيرها. وهذه الأدوات تتفاوت من مكان لآخر ومن زواج إلى زواج، إلا أن اتفاقيات القبائل والعشائر تنص على عدم المبالغة في مهر النساء وما يتعلق من مصروفات في الزوجات. حذا جمع مثل هذه الوثائق ودراستها دراسة تاريخية حضارية أكاديمية.

(٢) دراسة تاريخ الألبسة والزينة أو عادات الزواج والختان والأعياد وما يجري فيها من تقاليد اجتماعية موضوعات جيدة وتستحق أن يفردها دراسات علمية موثقة.

(٣) لمزيد من التفصيلات عن تاريخ الزواج في بلاد تهامة والسرارة (عسير، وجازان، والباحة وغيرها) انظر ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٧٨-٨٥. للمؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥، ص ١٩٦ وما بعدها.

(٤) هذه العادة وغيرها تغيرت في زمننا الحاضر، وأصبحت المقارنة صعبة بين الماضي والحاضر، لانفتاح العالم بعضه على بعض، وكذلك دخول التقنية في بيوت جميع الناس.

(٥) مازالت بعض هذه العادات عند كثير من سكان تهامة والسرارة، مع تبدل في بعض الإجراءات أو الاتصالات.

(٦) أيضاً هذه العادة مازال معمولاً بها وبخاصة بين الراشدين وأحياناً كبار السن.

ثالثة: وهي الذهاب إلى خاطبة، تقوم بالتوفيق بين الناس، فيذهب إليها من يريد الزواج، ويطلب منها أن تبحث له عن فتاة يرغب الزواج منها ويملي عليها الشروط التي يرغب فيها، وأحياناً تذهب أم الفتاة إلى تلك الخاطبة وتطلب منها أن تبحث لها عن زوج لابنتها بشروط معينة، وقد تكون الخاطبة ممن يأخذ مالا مقابل ذلك، وقد يكون هناك خاطبات يقمن بهذا العمل ويطلبن الثواب من الله عز وجل^(١).

وفي أي حالة من الحالات السابقة، تتم معرفة رأي ولي أمر الفتاة، وعندما يحصل القبول، يحدد موعد الخطبة الرسمية، ويلتقي الخاطب وبعض أقربائه مع ولي أمر الزوجة ويناقشون عدة أمور منها:

(١) المهر: يحدد المهر الذي سيتم دفعه كصداق للمرأة المخطوبة، وهذا الصداق شكلاً وأمام أعين الناس هو للمخطوبة، ولكن في كثير من الأحيان لا تعلم المخطوبة عنه شيئاً، ولا تراه بعينها، وإنما يأخذه وليها ليقتضي لها منه ما شاء ويستبد بالباقي لنفسه، ويختلف الصداق من مكان لآخر^(٢) ففي القرن (١٣هـ/١٩م) وبداية القرن (١٤هـ/٢٠م) وصل مهر البكر في تهامة إلى خمسة أو عشرة ريالاً فرانسة ولبتين ظفار، ووضحين، وحجلين، وخاتم ودبلة، وخرصان من الفضة، ويشترط عليه أن يكسيها من المدارع والقوط والمعاصب والصداري (الفتائل). أما في السراة فالمهر يراوح بين (١٠-٥٠) ريالاً عربياً، والشروط السابق ذكرها، باستثناء الملابس، فيشترط فيها الثوب المشتغل (المشغول يدوياً بالحرير)، والصمادة المكتلة بالحرير، وبعض الحلبي مثل التاج الفضي والخرصان (أقراط فضة تلبس في الأذن)، أما مهر الثيب في تهامة والسراة فحسب الاتفاق بين الطرفين^(٣).

ومنذ منتصف القرن (١٤هـ/٢٠) بدأت المهور تتزايد مع التحسن الملموس في أحوال السكان، فزاد المهر في تهامة والسراة حتى وصل خمسمائة وربما ألف ريال، وكانت الشروط تتزايد وتتوسع حسب الوضع المادي لأهل البلاد، وهكذا استمرت هذه الزيادة

(١) اليوم كثير من العوانس في المنازل، بل تزايد أعداد الشباب العازفين عن الزواج، وعلى الجامعات والمحاكم والمؤسسات المعنية أن تبذل جهوداً في خدمة الشباب والشابات على الزواج، بل التوعية على إيجابيات الزواج وسلبيات العزوف عنه.

(٢) كان هذا الظلم والجور في حق الزوجة منتشراً على نطاق واسع قديماً، وما زال موجوداً حتى اليوم، بل إن بعض أولياء الأمور يسعون إلى عضل بناتهم وأخواتهم وبخاصة إذا كن موظفات فلا يوافقون على من يتقدم للزواج منهن، بل يضعون العراقيل من أجل الاستيلاء على أموالهن، ودون أن يفكروا في إنسانية وعواطف الواحدة منهن (والله المستعان).

(٣) ما تم ذكره ليس قاعدة وإنما اطلعنا على مئات الوثائق الاجتماعية الخاصة بمهور النساء خلال القرون الثلاثة الماضية فوجدناها تختلف حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية، إلا أنها كانت في الماضي قليلة مقارنة بالستين عاماً الأخيرة (١٣٧٠-١٤٣٥هـ/١٩٥٠-٢٠١٤م) فقد ارتفعت وبالعن الناس فيها. وتاريخ الزواج في بلاد تهامة والسراة خلال القرنين (١٣هـ/١٩م) موضوع يستحق أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية.

مع الزمن حتى وصلت في بعض المناطق مع مطلع هذا القرن البحري الحالي إلى مئتين وثلاثمائة ألف ريال، وأصبح الجشع يسيطر على بعض الناس فصاروا يسومون بناتهم وكأنهن في سوق الرقيق، ويزوجهن إلى أولئك الذين يدفعون أكثر سواء كانوا من ذوي الدين أو غيرهم، والأهم عندهم المال، ونسوا قول الرسول ﷺ: " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تعجلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض "، فيدفع المتزوج نصفها والباقي يتم على شكل أقساط يكتب بها سنداً على أنها قرضة حسنة، وهي أساساً باقى مهر تلك الفتاة المسكينة التي ليس لها من ذلك شيء، ولم تكن سوى سلعة بيد ذلك الإنسان (ولي الأمر) الجشع، وإذا حضر الشاب ليتم زواجه ويعقد قرانه اشترط عليه ولي أمر الفتاة ألا يكتب المهر كاملاً في العقد، ثم يقول أحياناً أمام الناس الحاضرين لعقد القرآن " نحن لا نريد إلا الإنسان الطيب الذي يقدر بنتنا ويحشمها، وإلا فالفلوس ما هي شيء تروح وتجي، ونحن ما نريد أننا نشق عليه لأننا ودنا الذي يراحمنا يكون مرتاح، ما نبغاه يتورط بالدين" ^(١) وهو لا يقول الصدق، ويذكر من المهر شيئاً قليلاً، كأن يقول المهر عشرين أو ثلاثين أو ستين ألف ريال، والمهر الحقيقي مئة أو مئتين أو ثلاثمائة ألف ريال تزيد أو تنقص، ومع هذا وذلك فإن الزوج المسكين ضحية للتهديد بين كل حين وآخر، إما أن يكمل سداد ما عليه من دين، أو يدخل السجن بذلك السند، أو تسترد منه الزوجة حتى يتم السداد ويبقى فقيراً طوال عمره، مثقلاً بالديون لا يجد حلاوة لزواجه، ولا يشعر بلذته، بل رزق بعض الناس أولاداً ستة أو سبعة أو أكثر من ذلك ولم يكملوا سداد الدين الذي عليهم في زواجهم ^(٢).

والواقع أن الخير والصلاح باق في هذه الأمة إذ إن كثيراً من الناس زوجوا وما زالوا يزوجون بناتهم بأقل القليل من المال، وإذا لم يدفعوا من جيوبهم على زواج بناتهم فإنهم لا يكسبون شيئاً من وراء ذلك كله، ومن فترة بسيطة قامت بعض القبائل بتحديد المهور بينهم فمنهم من حددها بـ (٣٠ ألفاً) كبعض قبائل السراة، ومنهم من حددها بـ (٦٠ ألفاً) للبكر و (٢٥) ألفاً للثيب، مع العلم أن الذهب والكسوة تدخل ضمن هذه المبالغ، وقد تم العمل بهذه المهور مدة بسيطة من الزمن، فمنهم من التزم بذلك، وآخرون احتالوا عليه فطلبوا زيادة على المهر المطلوب وأحياناً يُكنى عن هذه الزيادة بقولهم (من تحت الفراش)، أو يقول للزوج لن أطلب منك زيادة ولكن عليك أن تقوم بشراء الذهب لزوجتك،

(١) دراسة مثل هذه الأقوال في عادات وأعراف وأحوال الناس في جنوبي البلاد السعودية (الباحة، وعسير، وجازان، ونجران، والقنفذة) ومقارنتها بأقوال عصرنا الحاضر، وكذلك اختلافها وتفاوتها من ناحية لأخرى، وأيضاً الجانب الأدبي واللغوي فيها موضوعات مهمة وجديرة بالبحث والدراسة .

(٢) هذا ما لمستته في أثناء تجوالي في أجزاء عديدة من بلاد تهامة والسراة خلال الثلاثين عاماً الماضية، وعلى أولياء الأمور ومن يتصفون بهذه الصفات أن يتقوا الله في بناتهم وأرحامهم فيسهلوا عليهم ويعينونهم على ظروف الحياة .

وتكسو أمها ومن يدخل بيتك، وتتراوح كسوة الأم بين خمسة آلاف وعشرين ألف ريال، وفي أثناء العقد يقول ولي أمر الزوجة المهر كذا وكذا، وهناك من يحلف على ذلك زوراً وبهتاناً^(١).

(٢) **الخطبة الرسمية** : عندما يتفق الأرحام فيما بينهم على التفاصيل الجارية في الزواج، فإنهم يحددون يوماً معيناً يذهب فيه الزوج وقرابته لزيارة أهل الزوجة ويأخذون معهم مبلغاً من المال، وهو جزء من المهر، وأحياناً المهر كله، ويكون أهل الزوجة وأقرباؤها في استقبالهم فيرحبون بهم وينزلونهم في مجلس الضيافة، ثم يأتي دور (المعاملة)^(٢)، حيث يعطون العلم، فيبدأ أهل الزوج وعندهم أكبرهم سنناً أو الشيخ فيقول: " القصد ماشي إلا سلامتكم وصلاة على النبي، نحن لفينا عندكم يا أرحامنا ونعطيكم أعلامنا، إما بخصوص الديرة، فالديرة والسيرة واحدة من عندنا لا عندكم، سوقنا وسوقكم واحد، ولا شيء جديد عليكم ونخبركم به، أما الأمطار فعند الله خير كثير، مثلما شفتم الأيام التي مضت علينا حرّة وشرّة، يبس فيها الزرع وجف منها الضرع، وعود الحلال على الشعير، ما عاد يسرح ولا يروح، وإن شاء الله أن الفرح قرب، للعباد والبلاد، ولا نسأل إلا الله أن يرحمنا برحمة من عنده، وسلامتكم، وصلى الله على محمد ". ثم يتحدث عن أولياء الزوجة أكبرهم سنناً أو شيخهم قائلاً: " حياكم الله وحيا علمكم، ويكرر نفس الكلام السابق مع اختلاف بسيط في السجع، وحسب القبيلة، حيث لكل قبيلة طريقة، والمعاملة تختلف حسب المواقف، ثم يقوم الموكل عن أهل الزوج فيوجه كلامه لولي الزوجة قائلاً " يا فلان حنا لفينا على لازمة تولدنا فلان عندكم، وهذا مبلغ (كذا وكذا من المال) والباقي يلحق"^(٣)، فيقوم ولي الزوجة أو الموكل عنه ويكرر الترحيب، وربما يكون إتمام العقد في تلك الليلة، أو يحدد له وقتاً آخر ويتعشى الضيوف من الذبائح التي أعدت لهم ثم يعودون إلى منازلهم، ومن ثم تمت الخطبة، يلي ذلك تحديد موعد العقد (الملكة) إن لم تتم ليلة الخطبة، ثم يحدد وقت الزواج، مع العلم أن الزوج يرسل كسوة لزوجته في كل عيد، وجرت العادة لدى بعض القبائل أن ترافق الرجال والدة الزوج أو أخته الكبرى ومعها بعض النساء، ويصطحبن معهن بعض الهدايا للعروس مثل الأقمشة والملابس وبعض العطور والبخور والقهوة والهيل والزنجبيل، وأحياناً حلي للباس والزينة

(١) الخيرون مازالوا الأكثر لكن ما تم الإشارة إليه في المتن مازال أيضاً موجوداً وبخاصة الادعاء بأن المهر حسب المتفق عليه في قواعد واتفاقيات القبيلة أو العشيرة، لكن الواقع عند البعض غير ذلك .

(٢) المعاملة : أي سرد الأخبار، وهذه عادة مازالت سائدة عند بعض كبار السن في تهامة والسراة إلى الآن، إذ على القادم أن يروي سيرته والسبب الذي جعله يزور المتحدث إليه. ومثل هذه العادة جديرة بالبحث والدراسة.

(٣) دراسة مثل هذا الموروث اللغوي والثقافي والاجتماعي جدير بالاهتمام والدراسة، وعلى أقسام اللغة العربية في جامعات الجنوب الاهتمام بمثل هذا الصنف من الثقافة التي انقرض أكثرها اليوم . للمزيد انظر: ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٧٨ وما بعدها، للمؤلف نفسه، بلاد بني شهر وبني عمرو، ص ١٢٢ وما بعدها، عبد الله بن علي سالم العُمري، منطقة الباحة، ص ٥٢-٥٤ .

وبعض الأقمشة والشراشف والأحذية وغيرها^(١)، ويقوم العريس - غالباً - بعد انتهاء العشاء بالسلام على والدة العروس ويعطيها هدية حسب حالته المادية .

ب- ليلة الزفاف (الزواج) : يقوم الزوج وأهله بإحضار الذبائح لهذه المناسبة، وتختلف عادات ليلة الزفاف من مكان لآخر، ففي بعض الأماكن تزف الزوجة من قبل أهلها إلى بيت زوجها قبل صلاة المغرب، ويتعشون عند الزوج مع الضيوف، وفي أماكن أخرى يذهب الزوج ببعض النساء من أقاربه إلى بيت الزوج فيعشيهم ولي الزوجة في منزله ويقضون الليل كاملاً في الرقص ومدح العروسة وأهلها والزوج وأهله، إلى أن يتم موعد الزفة، وفي أغلب الأوقات تصل العروس لبيت زوجها قبل صلاة الفجر، والمألوف في الماضي أن العروس تزف إلى بيت زوجها على جمل فتوضع في هودج، ويقوم أحد أفراد القرية أو العبيد أي عبيد عائلة أهل الزوجة إن وجد، ويأخذ بخطام الجمل مع المسيرة إلى بيت الزوج سواءً في قرية الزوجة أو غيرها، وأحياناً يقوم الزوج أو أحد أفراد عائلته بدفع مبلغ معين يسمى كسوة لعبيد أرحامهم (أهل الزوجة) وهي ما يسمى عرفاً بـ (القادية)، وربما يشترط مقدار المبلغ الذي يجب دفعه للعبد أو من قاد الجمل إلى منزل الزوج^(٢)، وأحياناً يكون أهل الزوجة قد سبقوها في أول الليل وتعشوا عند الزوج مع الضيوف، وربما يتأخرون إلى اليوم الثاني ثم يذهبون ليباركوا للزوج فيولم لهم ويفضل بعض أولياء الزوجات أن يباركوا للزوج بمبلغ من المال، والبعض الآخر يتعشى ويذهب دون أن يدفع أي عطاء، وفي السراة وبعض قرى تهامة تزف العروس قبيل أذان المغرب^(٣) .

وفي ليلة الزفاف يحضر أصدقاء الزوج وأقاربه ليشاركوا في الحفل، ويتعشون ويباركون بمبلغ من المال كل حسب مقدرته المالية، وتقوم بعض الأسر بعمل حفلة للزواج يشارك فيها بعض الشعراء الشعبيين، ومن الألعاب التي تمارس في مناسبات الزواج العرضة والمهشوش والمسحباتي وغيرها ابتهاجاً بزواج ابنهم، وفي ختام الحفل الذي تمدح فيه الأسرة والزوج وأرحامه يقوم الزوج أو والده بتوزيع مبلغ من المال يسمى كسوة الشعراء ويختلف مقدارها من أسرة لأخرى^(٤) .

(١) لقد قمنا بجولات في السنوات الماضية المتأخرة في القنفذة، وجازان والباحة، وعسير، ونجران فوجدنا تبايناً كبيراً في نظام الزواجات في هذه المناطق، وإجراء دراسة مقارنة في عادة الزواج خلال القرنين الماضيين موضوع جيد وجديد ويستحق العناية والبحث والدراسة .

(٢) منطقة الباحة وما جاورها من بلاد تهامة والسراة تحوي الكثير من الموروث اللغوي والاجتماعي والثقافي، ونأمل أن تنشأ مراكز بحثية في جامعات تهامة والسراة تقوم بدراسة مثل هذا الفلكلور والثقافة المحلية المهمة .

(٣) حضرنا زواجات في قري ومدن ببلاد تهامة والسراة منذ تسعينيات القرن الماضي (١٤/٢٠م)، وهناك تغيرات كبيرة جداً في عادات الناس قديماً وحديثاً وبخاصة في أعراف ومراسيم زواجاتهم . وهذا الموضوع المقارن جدير بالبحث والدراسة .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن الفنون الشعبية في بلاد غامد وزهران انظر: علي صالح السلوك . الموروثات الشعبية لغامد وزهران (١٤١٥هـ/١٩٩٤م) . خمسة أجزاء، وما زال هناك أشعار نبطية وأحاج وألغاز ومفردات لغوية كثيرة في منطقة الباحة جديرة بالبحث والدراسة، وهذه مسؤوليات الأكاديميين المتخصصين في جامعة الباحة .

وبعد انصراف الناس من الحفل يعود الرجل إلى بيته فيجده - غالباً - ممتلئاً بالنساء من أقاربه وأقارب الزوجة، عندئذ يقوم بتوزيع بعض الكسوة على قريبات الزوجة، وقد تكسى الأم من ريالين إلى خمسة ريالات ومصنف مطرز بخيوط ذهبية، ويكسى النساء الباقيات بالمصانف فيرقصن بها ويضعنها على رؤوسهن تعبيراً عن شكرهن للزوج وأسرته^(١).

ومن المساوئ في مرحلة الخطبة أن العريس - أحياناً - لا يرى مخطوبته ولا يعرفها، وهذا خلاف السنة النبوية، ومع ذلك فالزوج يكون في حالة من التوتر والقلق نظراً لما قد يكون فيها من عيوب، وكذلك الزوجة، وقديماً لا تملك العروس أن تعلن عن رغبتها في ذلك الزوج أو عدمها نظراً لكون الأهل قد وافقوا عليه، بل عليها لزوم الصمت سرها ذلك أم ساءها، وغالباً لا تتكلم في ذلك إلا لأمتها أو لأخواتها أو لبعض صديقاتها وبخاصة من تتق بهن^(٢).

أما الوقت الحاضر فلم يعد للمصانف ذكر، إلا في النادر، بل تحولت إلى مبالغ مالية فتكسى الأم بـ (٥ أو ١٠ أو ٢٠ ألف ريال)، وتكسى أقل واحدة من النساء بـ (ألف ريال)، ثم يرحل أهل الزوجة إلى منازلهم وتبقى الزوجة في بيت زوجها، وأحياناً يتم الاتفاق على موعد محدد ومتعارف عليه لزيارة أهل الزوجة من أجل إكرامهم والفرحة بهم، وعادات الزواج قديماً في تهامة والسراة متقاربة، إلا أن قبائل غامد لا يببالغون كثيراً في المهور، فكانوا ولا يزالون أيسر وأقل تكلفة من غيرهم^(٣).

اطلعنا على العديد من الكتب والدراسات المنشورة وغير منشورة، وعشرات الوثائق المختلفة في موضوعاتها ومحاورها، فوجدنا العديد من التقاليد والنظم التي عرفها أهل تهامة والسراة، ومنطقة الباحة جزء من هذه الأراضي الواسعة، ومن تلك الأعراف ما يلي:

أ- الأعياد، والختان، والسماوة، والمآتم؛ جميعها عادات مرتبطة بمواسم وأعراف عرفها ومارسها الناس منذ قديم الزمن، وفيها جميعاً يتم التعاون بين أفراد الأسرة أو

(١) المصنف: وجمعه مصانف، نوع ثقيل من الأقمشة ذات الألوان الزاهية، ويصنع أحياناً في بلاد الهند.

(٢) دخول التقنيات إلى منازل الناس اليوم، وكذلك الانفتاح الاجتماعي الذي تعيشه جميع مدن المملكة العربية السعودية جعلت الزواج يتنوع في آلياته وطرقه ومراسيمه، ومنها ما هو مخالف للسنة والمنهج الشرعي، ومنها ما يتوافق معه، وللأسف زادت السلبيات بشكل كبير في أعراف وتقاليد الناس الاجتماعية، ومثل هذه الموضوعات جدرة بالدراسة مع وضع الحلول المناسبة لمحاربتها ومعالجتها.

(٣) هذا ما سمعته من كثير من كبار السن في منطقة الباحة، مع أنني على يقين أن عموم منطقة تهامة والسراة من الأسر والعشائر والقبائل تحارب المغالاة في المهور، وتسعى إلى التيسير في كل ما يساعد في زواج وتزويج بناتهم وأبنائهم.

القرية أو العشيرة الواحدة على ممارستها وأداء مراسيمها الاجتماعية سواءً كانت سعيدة كالأعياد والسمامية وأحياناً الختان، أو محزنة مثل المآتم^(١). وفي جميع هذه العادات يتم إطفاء الطعام، واستقبال وتوديع الضيوف أو المشاركين فيها، وقد شاهدنا عشرات المناسبات خلال العقود الثلاثة الماضية، ثم قرأنا عنها في بعض الكتب والوثائق التي أشارت إلى حياة أجيال سابقة في القرنين الهجريين الماضيين فوجدناها في الماضي والحاضر تسير على وتيرة متقاربة ومتشابهة في كثير من تقاليدها، وإذا كان هناك اختلافات يسيرة في العقود المتأخرة، فذاك أمر طبيعي لأن الناس تطوروا في أوضاعهم التعليمية والاقتصادية^(٢)، وهذا جعلهم يتأثرون سلباً مثل المبالغات في بعض الولائم والنفقات، أو إيجابياً مثل تركهم بعض العادات السيئة المخالفة للشريعة كالتجمع في أيام عديدة في مناسبات العزاء (المآتم)، أو المبالغة في عادة الطهار (الختان) التي كان يجريها الآباء والأجداد لأبنائهم^(٣).

ب. ومن تقاليد سكان منطقة الباحة بشكل خاص وعموم بلاد تهامة والسراة:

الشجاعة والكرم، واستقبال الضيوف، ودور المرأة في المجتمع، والإصلاح بين الناس وحل المشاكل السائدة بينهم، وإعطاء الحقوق، وإغاثة الملهوف، وإعطاء الوجه، وقبول الجوار، ووضع شيخ القبيلة في قبيلته، وعلاقة الأسر أو العشائر بعضها مع بعض، وحماية البلاد من أي اعتداء داخل أو خارج القبيلة الواحدة^(٤) كل هذه الأعراف عرفها ومارسها التهاميون والسرويون، ووضعوا لها القواعد والنظم المكتوبة وغير المكتوبة، لكنها معروفة ومتفق عليها^(٥)، والدارس لتاريخ مناطق الباحة والنفذة وعسير الاجتماعي خلال القرون الماضية المتأخرة يجد أن أهلها يعيشون تبعاً لما تعارفوا واتفقوا عليه شفاهاً أو كتابة^(٦).

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأعراف الوارد ذكرها أعلاه، انظر ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٧٤-٩٠، المؤلف نفسه، بلاد بني شهر وبني عمرو، ص ١٢٢-١٢٩، والمؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥، ص ١٩٧-١٩٨، محمد درويش الغامدي، محافظة المخوة، ص ٤٢-٥٦.

(٢) يمتلك الباحث عشرات الوثائق غير المنشورة التي تحوي بعض التفاصيل عن النظم والعادات والاتفاقيات بين أفراد بعض القرى والعشائر وما يجب عليهم في أثناء ممارسة بعض عاداتهم وأعرافهم مثل: السماوة، والختان، والعزاء. ومثل هذا النوع من الوثائق جدير بالبحث والدراسة، لأنه يصور التاريخ الحضاري لبعض النواحي في بلاد تهامة والسراة.

(٣) إجراء دراسة مقارنة بين أعراف الناس قديماً وحديثاً موضوع جديد ويستحق أن يكون عنواناً لرسالة علمية أكاديمية.

(٤) كل محور من هذه الموضوعات يستحق أن يكون عنواناً لبحث أو كتاب أو رسالة علمية أكاديمية.

(٥) يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق الاجتماعية المختلفة عن مناطق جنوبي البلاد السعودية، ومعظمها يدور في فلك بعض المحاور المذكورة أعلاه خلال القرن (١٤هـ/٢٠م).

(٦) للمزيد انظر: ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٩٠-١٠١، المؤلف نفسه، بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٤١٣هـ)، ص ١٢٨-١٤٦. لدينا وثائق عديدة تصب في هذه الأبواب ونأمل أن نخرجها في دراسة مستقلة، وليس لدينا أي مانع أن نتعاون مع بعض طالبات وطلاب الدراسات العليا في أقسام التاريخ بالمملكة العربية السعودية ونقدم لهم ما يفيدهم في بحوثهم ورسائلهم العلمية

٢- صور من الحياة الاقتصادية :

سار الاقتصاد بمنطقة الباحة في مجالات عدة منها: الرعي، وتربية الماشية، والزراعة، والحرف اليدوية والصناعات التقليدية، والتجارة. والرعي من المهن الرئيسية عند سكان غامد وزهران منذ قديم الزمان، وغالبية تربية المواشي والجمال وأحياناً الماعز والحمير عند سكان البادية من المنطقة^(١)، أما الأجزاء السروية والتهامية فكانوا يمارسون رعي الماشية إلى جانب ممارسة الزراعة وبعض المهن الأخرى^(٢)، والرعاة نشيطون في عموم بلاد الباحة خلال القرنين (١٣-١٤هـ/٢٠١٩م)، بل كانت مهنة الرعي من المهن التي تعتمد عليها شريحة كبيرة من المجتمع الباحوي، وهناك من الأعراف والأحمية في كل ناحية أو عشيرة، وتستخدم بهدف تنظيم الرعي^(٣)، وقد ناقشنا موضوع الرعي في بعض دراساتنا السابقة عن نواح عديدة في بلاد تهامة والسراة، وهذه المهنة متقاربة في أنظمتها وطرقها عند عموم التهامين والسرويين^(٤).

(* تنقسم الزراعة في منطقة الباحة إلى نوعين، هما :

(أ) : المسقوي : وهي الأراضي التي تعتمد في ربيها على مياه الآبار، وتنتشر في السراة، وكل مجموعة من الناس في القرية يملكون بئراً خاصة بهم تسمى بئر الشراة أو بئر الشراكة. ويتقاسمون السقيا منها بالأيام حسب الاتفاق وحسب مساحة المزرعة لكل شريك في هذا البئر، ويعتمد استخراج الماء قديماً على المواشي (البقر-الجمال-الحمير)، وليس لأي إنسان من خارج الشراكة الحق في أن يسقي من تلك البئر إلا بإذن أصحابها، أما في تهامة فلم تكن زراعة المسقوي منتشرة بكثرة في القدم، وقد انتشرت إلى حد ما في السنوات القليلة الماضية، ويشترط في الأراضي التي تسقى من البئر بالمواشي أن تكون على مستوى البئر أو أقل حتى يجري الماء إليها بسهولة، أما الآن فأصبحت تضخ المياه إليها عن طريق الآلات والمكائن المخصصة للري^(٥).

- (١) لقد تحولت في نهاية عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م) في بعض نواحي بلاد غامد وزهران الشرقية فلم أجد أثراً كبيراً لمهنة الرعي، بل عموم تلك البلاد تحولت إلى مواطن استيطان، مع أنها في السابق كانت أماكن البدو والرعاة من أهل المنطقة.
- (٢) شاهدنا مهنة الرعي في أجزاء من بلاد السروات خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن (١٤هـ/٢٠م)، وكان معظم أهل السراة يقتنون بعض البهائم والحيوانات إلى جانب ممارستهم الزراعة وغيرها.
- (٣) أثناء سيرنا في منطقة الباحة عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م) استطلعنا مقابلة بعض المسنين، وعثرنا على بعض الوثائق التي تذكر أسماء بعض الأحمية في سروات غامد وزهران. والسائح في هذه البلاد يجدها ذات غطاء نباتي جيد، وكانت في الماضي أحسن مما هي عليه اليوم. للمزيد انظر: ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج٥، ص ٢٠١-٢٠٥.
- (٤) للمزيد انظر: ابن جريس، بلاد تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيلة، جزءان، وعسير ١١٠٠هـ-١٤٠٠هـ، ص ١٢١، وبلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٤١٣هـ)، ص ١٤٧.
- (٥) نظام الري في تهامة والسراة القديم يشبه نظام الري في اليمن، وهناك الكثير من الكتب والمراجع تحدثت عن الزراعة وربها عند العرب منذ قديم الزمن حتى يومنا الحاضر، كما أن هناك الكثير من الوثائق غير المنشورة التي تدور في فلك مسميات المزارع وأطوالها وملاكها وطريقة زراعتها ودرس محاصيلها، وموضوع تاريخ الزراعة في الباحة أو أي ناحية من نواحي جنوب البلاد السعودية خلال القرنين الهجريين الماضيين باب جديد ويستحق العناية من المؤرخين والباحثين الجادين.

ب- العثري : وهي الأراضي التي تسقى بمياه الأمطار، وفي الفصول المختلفة التي يعرفها كبار السن، فلكل ركيب (مزرعة) فلج يمتد حتى يلتقي مع مجرى الماء الذي يصب من الشعاب أو الأدوية، ويسمى ذلك الفلج (ساقية)، ويجري منها الماء إلى المزرعة، وعندما ترتوي يتسرب الباقي عبر فتحة في أحد جوانب المزرعة تسمى (المغيض)، وتبنى من الحجر لحماية الطين من الانجراف في الماء، وعندما تجف الأراضي يقوم صاحبها أو من ينوب عنه بحرثها وبذرها ثم دمسها بالمدمس لتسوية التراب، وتترك عدة أيام لينبت الحب، وطريقة البذر لا تختلف في العثري عنها في المسقوي^(١).

كانت عملية الحرث تعتمد على الثيران والجمال وبعض الحمير القوية، وأصبحت حالياً تعتمد كثيراً على آلات الحرث والزراعة (الحراثات)، والمرأة في القديم تقوم بدور كبير في الزراعة فتشارك في جلب البذور إلى البلاد، وصنع الطعام للعاملين في الزراعة من العائلة، وبعض الأعمال الأخرى مثل تسوية الأرض، والساقية وحماية الزرع من الحيوانات والطيور، والعمل في الحصاد (الحشوش، أو الصرام)، وتخزين الأعلاف والحبوب وغيرها^(٢).

وتنقسم مرحلة الزراعة إلى الحرث والبذر، ثم الإنبات وتبدأ من اليوم الثالث أو الرابع من بذر الحبوب، ثم تستمر في النمو لعدة شهور حسب عمر النبات المزروع ودورته في الحياة. أما مرحلة الحصاد، فتمر بمرحلتين هما : (١) قبل ظهور الثمر، ويلجأ إليها بعض الناس عندما تنقطع المياه، وتقل الأمطار عن المزرعة ويخشى أن يموت الزرع، عندئذ يحصد ويكون علفاً للبهائم وهذه العملية تنطبق على الذرة والدخن وبعض المزروعات الأخرى. (٢) بعد ظهور الثمر والسنابل يترك المحصول فترة من الزمن حتى ينضج، وفي هذا الوقت يلاقي المزارع كثيراً من المتاعب، بسبب اعتداء الطيور على الحبوب والحشرات التي تتسبب في إتلاف المحصول، وبعد مرحلة النضج يقوم المزارع بالصرام (قطف السنابل)، ثم الحشوش (حصاد الزرع)، ويترك الزرع في وسط الركيب (المزرعة) حتى يجف، ثم يلف على شكل حزم وتربط برباط من نفس نوع النبات، وأحياناً تستخدم الحبال وبعض الأقمشة لربط تلك الحزم، ثم تنقل وتخزن في المنازل، أو تردم فيما يسمى بـ (مراديم) جمع مردام، ويسند العلف مع بعضه البعض على شكل هرم،

(١) عاصرنا الحياة الزراعية في أجزاء من بلاد السراة منذ ثمانينيات القرن (١٤هـ/٢٠م)، وكانت نشيطة حتى بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، ثم بدأت تتدهور، لأن سكان البلاد صاروا يستبدلون مهن الزراعة بمهن أخرى أسهل وأكثر ربحية.

(٢) تاريخ المرأة في الباحة وعسير وجازان خلال القرون الماضية المتأخرة موضوع جيد، ونأمل من طالباتنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد، برنامج الدراسات العليا، أن يلتفتن إلى دراسة مثل هذا الموضوع الذي يستحق أن يصدر عنه عدد من رسائل الماجستير أو الدكتوراه.

ويستفاد منه لتغذية المواشي وبناء العيش والعشاش التي يسكنها بعض البدو والفقراء وبخاصة في الأجزاء التهامية^(١)، أما السنابل فتجمع في أكياس، وتشر على سطوح المنازل لتجففها الشمس، ثم توضع فيما يسمى (جرين) فتضرب بالعصا حتى تنفصل الحبوب عن السنابل، وقد تداس بأرجل البقر والحمير، وتقسم إلى أقسام^(٢): الحب ويستفاد منه للتغذية، والقصرة أو العزمة وهي فتات السنابل ويستفاد منها لتغذية المواشي، وعند الحصول على الحبوب فإنها تصرف في تغذية الأسرة، وذلك بعد إخراج نصيب العمال الذين قاموا بعملية فصل الحب عن التبن (القصرة، العزمة)، أما الفائض عن حاجة الأسرة فيسعر (يباع) ويشتري من ثمنه حاجات الأسرة الأخرى من مواد غذائية وملابس وغيرها، وكذلك جذوع الزرع تخرج منه حصة الحشاشة (الذين يحصدونه)، والباقي من نصيب صاحب المزرعة. والنشاط الزراعي يعتمد على التعاون المستمر سواءً بين أفراد الأسرة الواحدة، أو بين أفراد الأسر الأخرى المتجاورة، وتلجأ بعض الأسر إلى الخبر (المخبرة)، وهو أن يأتي فلان من الناس ويأخذ المزرعة على أن يزرعها ويتكفل بها مقابل إنتاجها، ويعطي جزءاً من ذلك المحصول إلى أصحاب المزرعة^(٣).

والزراعة في منطقة الباحة لا تقتصر على زراعة الحبوب، بل تمتد إلى زراعة الخضروات والفواكه المختلفة، والحبوب التي كانت تزرع هي: (١) الدخن، وقد اشتهرت به تهامة لكثرة إنتاجها له، ويعتبر أكثر الحبوب غلاءً في سعره وجودته، ويزرع في المناطق الحارة، ويقسم إلى قسمين: دخن الصيف، ودخن الخريف. (٢) الذرة، وهي محصول شتوي يأتي في المرتبة الثانية بعد الدخن، وتصنف إلى ذرة بيضاء، وصفراء، وصمياء، ومقتصرة، وحميراء (القذافة). (٣) الخرمان^(٤) وهو أشبه ما يكون بالذرة، إلا أن لون حبته يميل إلى السواد ويكون الخبز المصنوع منه أسود اللون. (٤) الدقسة: وهي محصول شتوي ويتكون من نوعين: (أ) المجدولة: وحبثها صغيرة جداً ذات لون أبيض

(١) لقد عاصرنا ومارسنا الزراعة والحصاد في محافظة النماص منذ عام (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، وشاهدنا التطور والتدهور الذي حل بمهنة الزراعة في عموم بلاد تهامة والسراة. وتاريخ مقارنة الزراعة بين الماضي والحاضر موضوع جيد ويستحق البحث والدراسة.

(٢) والسائح في عموم بلاد غامد وزهران وما جاورها اليوم لا يجد إلا آثاراً يسيرة لأماكن الزراعة مثل (الجرين) وغيره، بل إن ثقافة الزراعة والمزارعين القديمة تلاشت، وأصبح الجيل الصاعد لا يعرف من تلك الأنماط الحضارية أي شيء.

(٣) المخبرة، أو المزارعة، أو الشراكة وغيرها من النشاطات الزراعية التي عرفها أهل تهامة والسراة، ولهذه الأنواع من الزراعة تفصيلات في كتب الفقه والسنن وغيرها من كتب التراث الإسلامي. ومفردات ومعاملات وثقافات التهاميين والسريوين الزراعية في الماضي موضوعات تستحق أن يكتب عنها، وجديرة بأن تكون عناوين لبحوث أو رسائل علمية أكاديمية.

(٤) الخرمان: يطلق عليه أيضاً (الخرمد) في بعض أجزاء من بلاد السراة الممتدة من الباحة إلى عسير. والمصطلحات المحلية الخاصة بالزراعة والمزارعة في أنحاء تهامة والسراة موضوع جيد ويستحق الدراسة.

وتزرع بعد فصل الربيع. (ب) السيال: وحبثها صغيرة ولونها أصفر مشوب بحمرة وتزرع أيضاً بعد فصل الربيع. (٥) الحنطة: وتزرع في سروات المنطقة فقط، ويعد هذا النوع من أجود الحبوب. (٦) الشعير: وينقسم إلى ثلاثة أقسام، ويزرع عادة في المرتفعات مثل جبال الشدوين وفي عموم سروات الباحة وما جاورها، وأنواعه (أ) الشعير العربي: ذو سنبله كبيرة وحبته مستطيلة وهو أجود الأنواع وتستغرق زراعته خمسة أشهر. (ب) الشعير العجلانة: وواضح من اسمه أنه سريع النضج وتستغرق زراعته ثلاثة أشهر. (ج) الشعير المصري: ذو سنبله طويلة ذات شكل رباعي وسداسي أحياناً. ومن الحبوب التي تزرع في السروات ولها أسماء متعددة مثل: النعيسية، والقريطة، والبسيسية، والحطمة، والقحطانية، والدفين، والقشاشة، والبلس، وغيرها^(١).

أما الخضروات والفواكه فكانت وما زالت تنتشر بكثرة في المرتفعات السروية وشدوين في محافظة المخواة، ومن أشهرها (١) البن: وهو عدة أنواع البن الشدوي نسبة إلى جبل شدا، واليميني (الخلواني) نسبة إلى خولان باليمن، ويزرع البن في الصدر ببلاد بالشهم ووادي الخلي ببني ظليان بكميات قليلة. (٢) الموز: مثل موز ذي عين نسبة إلى قرية ذي عين الأثرية التي تقع أسفل عقبة الباحة، والشدوي، وموز الصدر^(٢). (٣) الليم والليمون: ويمتاز الليم بصغر حبه، والليمون بكبر حبه، واشتهرت به جبال شدا وسراة المنطقة، وبدأت تنتشر زراعته حالياً في تهامة. (٤) الخوخ، والمشمش، والرمان وغيره وتنتشر زراعة هذه الفواكه في السراة نظراً لاعتدال الجو فيها صيفاً، ومن الخضروات أيضاً الملوخية، والبامية، والكوسة، والباذنجان، والدباء، والفجل، والبصل، والجرجير، والكرات (الشخاميت)، والرجلة، والقراص، والثفلة، والسبانخ، والسلك، والدجر، والبقدونس، والقضب (البرسيم)، والفاصوليا، والملفوف وغيرها^(٣).

وهناك مواقع تشتهر أكثر من غيرها بزراعة الخضروات والفواكه مثل: صدر لوبة في حوالة بالشهم، وصدر الجنش مما يلي الحمران ببلجرشي، وصدر مطيب التابع لحزنة ببلجرشي، وصدر مخشوش ويقع قسم منها في حزنة وقسم آخر تابع المدان ببلجرشي،

(١) لقد عشت (والحمد لله) جزءاً من نهاية القرن الماضي فرأيت النشاط الزراعي الذي مارسه أهل تهامة والسراة، بل شاهدت كثرة المزروعات في أنحاء البلاد، ومعظم القائمين عليها آنذاك هم أهل البلاد أنفسهم، ومع توسع العمران وقدم الوافدين من بلدان عربية وغير عربية صارت الزراعة في الانحدار وحل محلها العمل في الوظائف الحكومية والمهنية والتجارية وغيرها.

(٢) لقد زرت قرية ذي عين والشدوين في محافظة المخواة في نهاية عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م)، ورأيت كثير من المزروعات في هذه النواحي، ومنها الموز وبعض الفواكه والخضروات الأخرى.

(٣) السائح في أسواق تهامة والسراة اليوم يلحظ امتلاءها بالخضروات والفواكه المحلية، والعاملون عليها من عناصر غير سعودية مثل المصريين والسودانيين وبعض سكان شرق آسيا مثل الهنود والباكستانيين والبنجاليين.

وصدر مالحة، وصدر حميدة مما يلي بلجرشي. ووادي الخلي التابع لبني ظبيان، ومن المحاصيل التي تزرع في هذا الأصدار الموز، والليمون، والحناء، والكادي، والريحان، والبعيثران، والعطر، والشار، والبن، والخضار. وبعض من هذه النباتات العطرية تزرع قريبا من المنازل في الأجزاء التهامية والسروية^(١).

أما البراري والغابات والأودية فتزخر بالعديد من الأشجار المختلفة التي تكتسى بالخضرة والجمال^(٢) ففي فصل الربيع هناك عدد من الأودية والغابات الخضراء مثل: غابة رغدان بالباحة، وغابة الزرقاء، ووادي مليل، ووادي ناوان، ووادي الأحسبة، وغابة الظفير ببني عبد الله، وغابة النقبات، وغابة ريع المحامي ببني ظبيان، وغابة الرهوة المطللة على وادي فيق، وغابة الغير المشرفة على وادي الحمى، وغابة أم غيث ومالحة ببلجرشي، وغابة حزنة وغابة المصنعة، وغابة القريع، وغابة شكران ببلجرشي، وغابة العطفين، وغابة السكران، وغابة طاحية، وغابة حوالة، وغابة الملتقى، وغابة موطف وجميعها في بلاد بالشهم ببلجرشي، وكذلك بعض المتزهات مثل وادي ناوان التابع لنيرا، ووادي حنف المشهور بالآثار وبخاصة المكان المسمى بالحجرين، وبعض الأودية المنتشرة في مدينة قلوة والشعراء وما جاورها^(٣).

ومن الأشجار المنتشرة في المنطقة: الظهيان، والسرح، والضير، والشقب، والقرض، والسري، والعصر، والغزر، والمض، والمقل، والعتم، والعيد، وشار القروود، والديبل، والعيقتان، والضيمران، والوزاب، والسكب، والجنع، والمرخ، والأثل، والأراك، والبشام، والسدر، والسمر، والسلم، والقطف، والريحان، والبرك، والكادي، والغلف، والسلع، والحناء، والحنظل، والأثب، والعشر وغيرها^(٤).

أما مواسم الزراعة في بلاد غامد وزهران وأوقاتها فهي على النحو التالي (١) نجم الجبهة: مكون من أربعة أنجم، ويوافق طلوعها طلوع نجم سهيل وفيه يقطف التمر. (٢) نجم الذراع: طلوعه يؤذن ببداية زراعة الذرة البيضاء والصميماء. (٣) نجم الثريا: وبطلوعها

(١) شاهدت بعضاً من هذه الأصدار، وكذلك بعض المدن والقرى في منطقة الباحة التي تزرع أصنافاً مختلفة من الفواكه والخضروات. مشاهدات الباحث في نهاية عام (١٤٣٢هـ/٢٠١٢م).

(٢) معظم بلاد السروات والأصدار الممتدة من جازان ونجران إلى الطائف يغلب عليها كثرة الأشجار وتعدد الغابات، وأبو حنيفة الدينوري من أهل القرن (٢هـ/٩م) ذكر كثيراً من أسماء الأشجار والنباتات الموجودة في هذه البلاد، انظر كتابه الموسوعي (النبات).

(٣) وقف الباحث على كثير من هذه الغابات والمواطن السياحية أثناء تجواله في منطقة الباحة في نهاية عام (١٤٣٢هـ/٢٠١٢م).

(٤) لمزيد من التفصيلات عن هذه الأشجار والنباتات انظر: أبو حنيفة الدينوري، كتاب النبات، أجزاء عديدة، أنظر أيضاً: الجزء الأول من كتاب، صفحات من تاريخ عسير، لغيثان بن جريس.

تبدأ زراعة القمح والشعير (وهذا النجم يفيد في تحديد وقت السحر في أيام شهر رمضان) .
(٤) ثريا الخريف: عنقود مفتوح في كوكبة الثور فيه مئات النجوم، لكن لا يرى منه إلا سبعة أنجم، ولذلك يسميها الأهالي بالسبع، وسميت بالثريا لكثرة نجومها، وسميت أيضاً بثرى الخريف لأن طلوعها يؤذن بالاستعداد لزراعة دخن الخريف. (٥) ويضاف إلى ذلك نجوم الكف، والنثرة والجوزاء^(١) .

أما الأشهر ومسمياتها لدى أهالي منطقة الباحة فأشهر السنة تسمى عندهم : (١) محرم (عاشور) . (٢) صفر (سادية) . (٣) ربيع أول وثاني، وجمادى أول وثاني ويسمونها (الأربعة) و (الأجمدة) . (٤) رجب . (٥) شعبان (قصير أو مليص) . (٦) رمضان . (٧) شوال (فطر أول) . (٨) ذو القعدة (فطر ثاني) . (٩) ذو الحجة (شهر الحج) .

أما الأدوات المستخدمة في الزراعة فهي : (١) العود (المحراث) : مصنوع من الخشب يثبت من طرفه في المقرنة التي يقرن بها الثيران، والطرف الآخر تثبت به سنة حديد حادة لشق الأرض . (٢) المقرنة (مصلبة) : وتستخدم كضابط لمسار الثورين، فتوضع على رقبتهما، وتربط بالحبال، وهي مصنوعة من الخشب، ويربط في منتصفها العود (المحراث) ، والمدمس في حالة الدمس، وعندما يربط بها الثوران فإنهما يسيران على خطين متوازيين في اتجاه واحد . (٣) المدمس : وهو قطعة خشبية ثقيلة ذات سمك يصل إلى خمسة وعشرين سنتيمتراً، وذات طول يصل إلى متر وسبعين سنتيمتر، وتمسح آثار الحرث وأقدام الثيران، وتغطي الحب بالتراب، وتربط بالمقرنة عن طريق الحبال أو ما يسمى الجر، وتسمى الثيران إذا تم وضع آلات الحرث عليها وتجهيزها للحرث الضمد^(٢) . أما السماد فيعتمد على مخلفات المواشي وفضلاتها، فتجمع حتى تصبح أكوماً كبيرة تسمى (دمنة) ، ثم تنقل على ظهور الجمال والحمير بواسطة الحفص المصنوع من الطفي وتوضع في البلاد (المزرعة) ، وتثر في أنحائها .

(*) عرف أهل الباحة الكثير من الحرف والصناعات التقليدية مثل: جمع الحطب، والصيد، وحرف الدباغة والخرازة، والنسيج والخياطة والصباغة، والنجارة، والحداة وصياغة الذهب والفضة، وصناعة الفخار، والبناء، وصناعة الطفي، والحجامة، والحلاقة،

(١) للمزيد عن مواسم الزراعة عند العرب قديماً انظر كتاب (الأنواء) لابن قتيبة، ودراسة مواسم الزراعة في بلاد تهامة والسراة موضوع جيد ويستحق أن يكون عنواناً لبحوث أكاديمية عديدة .

(٢) جميع هذه الأدوات انقرضت وأصبحنا لا نشاهدها إلا في بعض المتاحف الشعبية في منطقة الباحة وغيرها من بلدان جنوبي البلاد السعودية، والموروث الزراعي القديم مهم ويجب أن ندرسه لأبنائنا وحفدتنا حتى يدركوا معاناة آبائهم وأجدادهم، ويطلعوا أيضاً على بعض من الصور الحضارية التي مارسوها وعاشوها .

ومهن أخرى عديدة في المجالات الزراعية والتجارية والصحة والتعليم وغيرها^(١). ومن خلال تجوالنا في نواح عديدة من بلاد تهامة والسرارة وإنجازنا بعض البحوث الحضارية مثل: تاريخ الحرف والصناعات القديمة في عسير، وأجزاء من مناطق نجران والباحة وجزان^(٢)، اتضح لنا عدة أمور نذكر أهمها في النقاط التالية :

١. كان الآباء والأجداد في القرون الماضية المتأخرة يعتمدون بالدرجة الأولى على أنفسهم، فيسعون إلى توفير كل أغراضهم وأدواتهم الضرورية في كسب معاشهم، فالمزارع مثلاً يصنع معظم احتياجاته في الزراعة بنفسه، وإذا عجز عن توفير شيء ما فإنه يذهب إلى أحد أبناء قريته أو قبيلته أو منطقته، والقادر على تلبية حاجاته، يقدمها له بالإعارة أو يصنعها له إذا كان من القادرين على ذلك، وهكذا تسير الأمور في باقي الأغراض أو المهن الأخرى^(٣). وإذا بحثنا عن الحرفيين المتخصصين بمهن محددة مثل: النجارة، أو الحدادة، أو الخياطة، أو الدباغة والخرافة وغيرها، فهم قليلون، وعملهم في الغالب ممارسة مهنتهم وصنع أدوات تباع للآخرين^(٤).

٢. إذا وقفنا مع كل صناعة أو حرفة وجدنا مقوماتها الأساسية موجودة في البيئة التهامية والسرورية، كالمواد الخام لكل صناعة، والأيدي العاملة المحلية، والمناخ، والأسواق الأسبوعية التي يوجد فيها كل احتياجات الناس منذ بداية كل صناعة حتى بيع أو شراء مخرجاتها المصنوعة. ومن ثم ترى عند الناس إلى حد ما اكتفاء

(١) للمزيد عن بعض الحرف والصناعات في منطقة الباحة خلال القرنين (١٤١٣هـ/١٩٠١م)، انظر عبد الله بن علي بن سالم العُمري، منطقة الباحة، ص ١٠٢-٧٧، محمد درويش الغامدي، محافظة المخوة، ص ١٠٠-٧٤، غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٥، ص ٢٠٨-٢١٢. وفي أثناء زيارتنا لمنطقة الباحة في نهاية عام (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) شاهدنا في بعض أسواقها ومتاحفها الشعبية العديد من الأدوات القديمة، المصنوعة محلياً بأيدي حرفيين من أهل البلاد .

(٢) للمزيد انظر: ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ١٤٧-١٦٣، للمؤلف نفسه، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، الأجزاء، (الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، والسادس)، للمؤلف نفسه، بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٤١٣هـ/١٩٠١م)، ص ١٥٤-١٤٩ .

(٣) هكذا كان ديدن المجتمع في السابق، وظاهرة التعاون والتأزر من القيم الرئيسية التي كانت سائدة بين أفراد القرية الواحدة أو القرى المتجاورة، مع أنها اليوم تدهورت بل أصبحت أحياناً مفقودة .

(٤) التقى الباحث خلال العشرين عاماً الماضية العديد من الحرفيين القدماء الذين عاصروا النصف الثاني من القرن (١٤٠٠هـ/٢٠٠٠م)، فوجد عندهم أخباراً وروايات متنوعة عن مقومات صناعاتهم القديمة، وأسعار المواد المصنوعة، وتعايش الناس وتراحمهم، بل عثرنا على بعض الوثائق الخاصة ببعض المهن مثل: صناعة الخصف، والفخار، والجلد، والخشب وغيرها . ومعظم هذه الوثائق تدور حول أسماء بعض المواد الأساسية في تلك الصناعات، وأسماء الحرفيين وأماكن وجودهم في القرى الباحوية والسيرية والجازانية . وإجراء دراسة مقارنة عن الحرف السعودية في مجال الصناعات موضوع يستحق أن يخرج عنه عشرات الدراسات، نأمل أن يلتفت الباحثون والصناعيون والاقتصاديون إلى مثل هذه الجوانب فتثري بالبحوث والدراسات الأكاديمية .

ذاتياً محلياً، وإذا احتاجوا إلى أشياء أخرى وهي قليلة فتستورد من الأسواق المحلية، أو من بعض الأسواق الأخرى في الحجاز والقنفذة واليمن وغيرها^(١).

٣. نلاحظ أن جميع أو معظم الصناعات والحرف القديمة في بلدان تهامة والسراة انقرضت، فلا يعرف أسماؤها، أو طرق صنعها، أو استخدمها إلا الأجيال السابقة، ومعظمهم ماتوا، وأصبح جيل اليوم لا يعرف من حضارة آبائه وأجداده شيئاً، ومن ثم فالمسؤولية كبيرة على مؤسسات التعليم، والثقافة، والسياحة وغيرها فتؤسس مراكز علمية وبحثية تربط الماضي بالحاضر، وتبين للناس اليوم كيف كانت حياة آبائهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية^(٢).

(*) تاريخ التجارة في بلاد الباحة خلال القرون الماضية المتأخرة:

موضوع مهم وجديد في بابه وتفصيلاته، وقد أشرنا إليه في كتابنا: القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير) (الجزء الخامس) في صفحات عديدة^(٣) ونورد في هذا الجزء فقرات أخرى، هي على النحو التالي:

١. موقع منطقة الباحة استراتيجي فهو يربط بين مناطق وحواضر عديدة في بلاد تهامة والسراة، بل تمتد بركات هذا الموقع إلى أن تتصل ببعض موانئ البحر الأحمر، وحواضر اليمن والحجاز^(٤).

٢. تعدد الأسواق الأسبوعية القديمة في بلاد الباحة تهامة وسراة، بل إن معظم القبائل كانت تقيم أسواقاً أسبوعية عديدة في بلادها، وهذه الأسواق على صلات اجتماعية

(١) تاريخ الحرف والصناعات في الباحة، أو عسير، أو القنفذة والليث، أو جازان، أو نجران خلال الثلاثة قرون الماضية موضوعات تستحق أن تكون عناوين لكتب أو رسائل علمية، ونأمل من الطالبات والطلاب في برامج الماجستير والدكتوراه بأقسام التاريخ في جامعات الجنوب ومكة وجدة أن يلتفتوا إلى مثل هذه الميادين العلمية، وهي جديرة بالاهتمام والدراسة.

(٢) في أثناء تجوالنا في مناطق السراة خلال السنوات الماضية المتأخرة، زرنا متاحف شعبية، والتقينا أعداداً كبيرة من الشباب الذين تتراوح أعمارهم من (١٥-٢٥) سنة، وتحدثنا معهم عن بعض الثقافات والمفردات اللغوية لكثير من الأدوات والأسماء القديمة فوجدناهم لا يعرفون عنها أي شيء، بل قال بعضهم هذه مصطلحات وثقافات غير صحيحة، وآخرون يعلقون باحتقار أو سخريه، ولا يعلمون أنها كانت جزءاً من حياة الآباء والأجداد ولهذا فربط الشباب والشابة بحضارة الآباء والأجداد مهمة، مهما كانت متواضعة، وكم عرفنا من التجارين، أو الحدادين، أو الدباغين، أو الخياطين، أو الرعاة، وغيرهم في العقود الأخيرة من القرن الهجري الماضي (١٤/٢٠م)، ونرى بعض أبنائهم وأحفادهم اليوم أصبحوا أدباء أو شعراء أو أطباء أو مهندسين أو علماء يشار إليهم بالبنان. هكذا هي سنة الحياة لكن ترابط تاريخ الأمم مهم، ومعرفة الأجيال اللاحقة كيف كان تاريخ آبائهم وأجدادهم وأجيالهم السابقة في غاية الأهمية.

(٣) انظر الكتاب نفسه، ص ٢١٢ - ٢٢١.

(٤) منطقة الباحة متوسطة بين الحجاز وعسير والقنفذة والبرك وبعض الأجزاء النجدية، ومن ثم فهي حلقة وصل بين هذه الأوطان المتباعدة. المصدر: مشاهدات الباحث في نهاية عام (١٤٢٣هـ/٢٠١٢م).

واقصادية وثقافية جيدة بأهل البلاد^(١)، وتلك الأسواق مرتبطة بطرق برية عديدة ومتنوعة في أطوالها واتساعها وأهميتها، ومن تلك الطرق ترد أو تصدر الكثير من السلع المتنوعة في أحجامها وأعدادها وأشكالها^(٢)، وكان البعض من أهل البلاد يتاجرون في بعض السلع المحلية، كالحبوب، والمواشي وأحياناً المصنوعات التقليدية المحلية، كما عرف أهل الباحة الكثير من التعاملات التجارية مثل: المياضة، أو التعامل بالعديد من العملات التي عرفتها الجزيرة العربية خلال القرنين الماضيين (١٤٠١هـ/٢٠١٩م)^(٣).

٢. تجارات الماضي لا تقارن مع الوضع التجاري منذ نهاية القرن الماضي (١٤٠١هـ/٢٠م)، والعقود الأولى من هذا القرن (١٥٠١هـ/٢٠م)، فالحياة التجارية السابقة كانت محدودة في أسواقها وسلعها وتجارها وطرقها بسبب ضيق الحياة الاقتصادية، وتدهور الحياة السياسية، فالأمن مفقود، ولا توجد حكومات شمولية تفرض هيمنتها على البلاد بعكس التاريخ المعاصر الذي توفر فيه الحكم السياسي القوي، والخدمات التنموية، كالطرق والمواصلات الجيدة، والأسواق المحلية والإقليمية والعالمية، إلى جانب توفر المال والرخاء في أيدي الناس وغيرها من المؤهلات الجيدة وذلك يختلف تماماً مع ظروف الناس الصعبة قديماً^(٤).

٤. من خلال البحث في وثائقنا الخاصة، وفي بحوث طلابنا السابقة على مدار (٢٥) سنة، وتجوّلنا في منطقة الباحة وزيارتنا لبعض الباحثين وشيوخ العشائر وأصحاب المكتبات الخاصة أو المهتمين بتراث المنطقة استطعنا أن نطلع على عشرات الوثائق،

(١) الأسواق القديمة ليست للبيع والشراء فقط، ولكنها حاضنات اجتماعية وثقافية وفكرية واقتصادية وإعلامية لمن يرتادها أو يقوم على حمايتها. وإجراء دراسة تاريخية حضارية على أسواق غامد وزهران خلال القرون الثلاثة الماضية موضوع يستحق أن يكون عنواناً لكتاب أو رسالة علمية.

(٢) الطرق ووسائل النقل، وكذلك الصادرات والواردات من وإلى منطقة الباحة خلال القرن (١٤٠١هـ/٢٠م) موضوع جديد في بابه ويستحق أن يكون بحثاً أكاديمياً لرسالة ماجستير أو دكتوراه، نأمل من أحد الباحثين في أقسام التاريخ السعودية أن يتولاه بالدراسة والاهتمام.

(٣) عرفت منطقة الباحة بعض العملات الأوروبية والمصرية والعثمانية، كما وصلت إليها بعض العملات الأجنبية الأخرى وبخاصة في القرن (١٤٠١هـ/٢٠م)، وفي النصف الثاني من القرن الهجري الماضي سادت العملات العربية السعودية. للمزيد عن التعاملات التجارية في مناطق الجنوب السعودي خلال القرنين الماضيين (١٤٠١هـ/٢٠١٩م). انظر علي أحمد عسييري. عسيير (١٢٨٩-١٢٤٩هـ)، ص ٤١٣ وما بعدها، ابن جريس، عسيير (١٤٠٠-١١٠٠هـ) ص ١٧٥ وما بعدها، للمؤلف نفسه، بلاد بني شهر وبني عمرو، ص ١٦٢ وما بعدها، عبد الله علي سالم العمري، منطقة الباحة، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٤) دراسة الحياة التجارية الحديثة منذ أربعين عاماً مهمة وتستحق أن تدرس في عدة مجلدات، أما تاريخ القرون الماضية فهذه مهمة المؤرخين والمتخصصين في أقسام التاريخ بجامعة: الباحة، والمملك خالد، أو الطائف فيدرسوا أحوال التجارة والتجار في بلاد تهامة والسراة وهو موضوع جيد ويستحق أن يصدر عنه دراسات تاريخية متعددة.

ونسلم الكثير من الروايات والأخبار الاقتصادية للغامديين والزهرانيين، ومن ثم خرجنا ببعض الانطباعات التي ندرج أهمها في البنود التالية :

أ . أن التجارات الغامدية والزهرانية بين الباحة ومدن الحجاز الرئيسية كانت نشطة وقوية، فهناك الكثير من السلع الواردة والصادرة عن الباحة إلى الطائف ومكة وجدة والعكس صحيح، وقد اطلعنا على أسماء الكثير من التجار الغامديين الذين كانوا أصحاب محلات تجارية في تلك الحواضر الحجازية^(١).

ب . بعض الوثائق ذكرت أسماء وأسعار السلع التي كانت تصدر عن الحجاز أو القنفذة أو جازان إلى الباحة، وهذه الوثائق احتوت أيضاً على أسماء تجار من منطقة الباحة وخارجها، وأشارت أيضاً إلى بعض الأسواق الأسبوعية في تهامة والسراة، وأحياناً إلى وسائل النقل مثل الجمال والحمير وأجورها مع أصحابها، أو بدونهم^(٢).

ج . من الثابت أن المنطقة مرت خلال الأربعة القرون الماضية بالعديد من الصراعات الحربية والسياسية، وفي وثائق تلك الفترة ظهر لنا الكثير من المعلومات المتعلقة ببعض السلع الحربية وأسعارها، ووسائل النقل، والتعاملات التجارية بين أهل البلاد والغازين لبلادهم مثل العثمانيين وغيرهم، وما جرى من معوقات ودمار على الحياة التجارية نتيجة لتلك الصراعات السياسية^(٣).

د . هناك وثائق أو مراجع أخرى أشارت إلى معوقات أخرى في الميادين الاقتصادية والتجارية مثل: الصراعات القبلية وأثرها في خراب الاقتصاد، واللصوص وما يقومون به من سلب ونهب في الأسواق أو المزارع، أو سرقة بعض البهائم والمواشي، وكذلك الأمراض والجفاف والقحط الذي كان يحل على البلاد من وقت لآخر^(٤).

(١) تاريخ الغامديين والزهرانيين وصلاتهم مع الحجازيين وبخاصة سكان مكة والطائف قديم جداً يعود إلى ما قبل الإسلام وعبر عصور الإسلام المختلفة . وهذا الباب يستحق أن يتصدى له عدد من المؤرخين والباحثين الجادين.

(٢) يوجد في مكتبة الباحث العلمية بعض من هذه الوثائق التاريخية والحضارية، ونأمل أن يظهر لنا من أبناء منطقة الباحة مؤرخ جاد يتولاها بالبحث والدراسة، وما زال منها الكثير عند بعض الأسر والبيوتات العلمية في غامد وزهران .

(٣) تاريخ الحياة الحضارية في منطقة الباحة في ضوء الوثائق السياسية والعسكرية خلال القرون الماضية المتأخرة موضوع مهم ويستحق الاهتمام .

(٤) المعوقات الاقتصادية في القرون الماضية موضوع جدير بالدراسة . وما زال هناك بعض كبار السن الذين يذكرون بعض القصص والروايات التي عاشها أهل البلاد خلال النصف الثاني من القرن (١٤هـ/٢٠م).

هـ - في بعض الاتفاقات والوثائق القبلية نجد ذكر بعض العقوبات التي تضعها القبيلة أو العشيرة على من يتعدى على حقوق الناس التجارية والزراعية والصناعية، ومثل تلك العقود والاتفاقيات تحد من تدهور الحياة الاقتصادية في البلاد^(١).

٣- صور من الحياة العلمية والثقافية :

(*) الحديث عن التعليم موضوع كبير يستحق مئات الصفحات، وموقع منطقة الباحة الجغرافية يؤهلها إلى أن يصل إليها بعض الفقهاء والمعلمين من الحجاز أو بلدان الساحل كالقنفذة والبرك وجازان وبعض المدن اليمنية الأخرى^(٢). ولن ن فصل الحديث عن تاريخ الحياة العلمية والتعليمية والثقافية في بلاد غامد وزهران خلال القرون الماضية المتأخرة. وإنما نذكر محاور رئيسية لعلها تقود بعض الباحثين والمؤرخين إلى دراسة هذه الباب الواسع، فنقول:

١. أشرنا إلى صور من تاريخ منطقة الباحة في حوالي خمسين صفحة من كتابنا: القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الباحة وعسير) (الجزء الخامس)^(٣).

٢. هناك بعض الكتب المطبوعة، أو الرسائل العلمية، أو البحوث المنشورة في بعض المجلات العلمية الأكاديمية أشارت إلى تنف من تاريخ التعليم في الباحة خلال القرن (١٤/هـ/٢٠م)^(٤).

٣. في بلاد غامد وزهران بعض الأسر والبيوتات العلمية التي كان لها دور تعليمي تنويري في القرنين الهجريين الماضيين (١٢-١٤/هـ/٢٠-١٩م)، وقد قابلت بعض أبناء أو حفدة هذه الأسر في نهاية عام (١٤٣٢هـ/٢٠١٢م) ورجوتهم ألا يبخلوا بتراث آبائهم وأجدادهم من النشر وتمكين الباحثين من الاطلاع عليه^(٥).

(١) أثناء تجولنا في مناطق الجنوب السعودي خلال السنوات الماضية المتأخرة استطعنا أن نجمع كثيراً من الاتفاقيات والعقود الصادرة عن بعض القرى أو العشائر، والهدف من أقرارها والتوقيع عليها هو إيجاد قواعد وأنظمة بين أفراد العشيرة أو القرية الواحدة، بهدف نشر الأمن بينهم ومنع الاعتداءات بعضهم على بعض، وإيجاد مجتمع مترابط تسوده الرحمة والتعاون ودفع الضرر عن أهلهم وبلادهم، ومثل هذه الاتفاقيات كثيرة وبخاصة في القرنين (١٢-١٤/هـ/٢٠-١٩م) وهي جديرة بالجمع والدراسة والتحليل.

(٢) وصل إلى بلاد الباحة بعض المعلمين من نواح عديدة في الجزيرة العربية، بل ذهب بعض أبنائها في القرن (١٢-١٤/هـ/٢٠-١٩م) إلى الحجاز أو مصر أو اليمن وربما إلى السودان والقرن الإفريقي لطلب العلم هناك.

(٣) انظر الكتاب، ج٥، ص ١٢٨-١٤٤، ص ٢٢١-٢٦٠، ٣٠١-٣١٥.

(٤) هذا ما وجدته في بعض المكتبات الجامعية، مثل أم القرى، والملك عبد العزيز، والإسلامية بالمدينة المنورة، والملك سعود، والإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومكتبة الملك فهد الوطنية، ومكتبة الملك عبد العزيز العامة.

(٥) من المؤسف أنني التقيت عدداً كبيراً من أبناء وحفدة الأسر والبيوتات العلمية التي ظهرت في جازان، ونجران، وعسير، والقنفذة، والباحة خلال العقود الثلاثة الماضية المتأخرة، وطلبت منهم ألا يحجروا على تراث علوم أسرهم وأبائهم وأجدادهم الأوائل (رحمهم الله) والذين كان لهم فضل على أهل المنطقة تعليمياً وفكرياً وثقافياً، وغالبية هؤلاء الأبناء والحفدة (هداهم الله) يتحججون بأعذار واهية، كأن يقولوا ليس عندنا شيء، وهم غير صادقين، لأن أجدادهم وأبائهم (غفر الله لهم) كانوا أعلاماً في بلادهم، وكثير منهم كان له مدونات ومراسلات ووثائق متنوعة، وهناك من وعد بنشرها أو مساعدة الباحثين في الاطلاع عليها ودراستها، وفريق ثالث لا يتعاون ولا يعتذر ولا يعد بشيء. وقد أعالج هذه النقطة بتوسع في بحث آخر وأذكر ما عرفته وشاهدته خلال ثلاثين عاماً.

- ٤ . يوجد في منطقة الباحة الكثير من الوثائق المتناثرة في أيدي بعض الأسر أو الأفراد، ويوجد فيها مادة علمية جيدة عن تاريخ التعليم، ونأمل من أصحابها أن يدفعوها إلى من يدرسها، كما نأمل من جامعة الباحة أن تؤسس مراكز بحثية أكاديمية تهتم بمثل هذا النوع من الوثائق ثم تشجع الباحثين على دراستها وتحليلها^(١).
- ٥ . على إدارات التعليم في المنطقة، وعلى الأدباء والمعلمين المتأخرين والمتقدمين أن يحافظوا على السجلات والوثائق التي تؤرخ للتعليم في المنطقة، بل عليهم أيضاً أن يدونوا خبراتهم وذكرياتهم في مجال التعليم، كما نرجو أن نرى أكاديميين مؤرخين باحثين جادين من الغامديين والزهرانيين ليدرسوا الحياة الثقافية والتعليمية في هذه البلاد خلال القرون الماضية المتأخرة^(٢).

كان عند الغامديين والزهرانيين بعض العلوم والمعارف الأخرى مثل: معرفة علوم الزراعة وفصولها وأمراضها، أو الحرف والصناعات التي سبق الإشارة إلى بعضها، أو الأهازيج والفنون (الفلكور) الشعبية واللغوية والأدبية، أو الحكم والأمثال والأحاجي والفكاهة وغيرها^(٣). وهذه الموضوعات لن نناقشها، ونأمل أن نرى في المستقبل بعض الباحثين الجادين الذين يجمعون مادتها ويدرسونها، ولكن في الصفحات التالية نشير إلى:

(*) لمحات من حياة الطب والتطبيب عند أهالي الباحة^(٤).

مادة هذه المحور تم جمعها قبل أكثر من عشرين عاماً عن طريق أحد طلابي في مرحلة البكالوريوس^(٥)، وهو عبد الله بن علي بن سالم العمري^(٦)، الذي أعد بحث تخرجه

- (١) على جامعة الباحة مسؤوليات كبيرة تجاه سكان وبلاد منطقة الباحة، ويجب أن تستشعر هذه المسؤولية وتسعى إلى خدمة البلاد والعباد بكل ما يفيد .
- (٢) زرنا منطقة الباحة عام (٢٠٠٦هـ/٢٠٠٦م) والتقينا بعض أديانها ومعلميها، كما زرنا إدارة التعليم العامة في الباحة، وحاوّلنا الاطلاع على أرشيفها لكن المسؤولين فيها لم يمكننا من ذلك، وذهبنا إلى إدارة تعليم المخوة فلم نجد تجاوباً من إدارتها أيضاً، واتصلنا بنادي الباحة الأدبي فلم نجد في مكتبته ما يفيد في تاريخ التعليم . ونقول إن تاريخ التعليم خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) موضوع مهم، ومادته العلمية متوفرة مقارنة بالقرون السابقة، ونأمل أن نرى باحثاً جاداً فيدرس هذا الموضوع، ومن يفعل ذلك فسوف يضيف إلى المكتبة العربية عملاً علمياً جيداً .
- (٣) جميع هذه الموضوعات تستحق البحث والدراسة خلال القرنين (١٤.١٣هـ/٢٠.١٩م) .
- (٤) لمزيد من حياة الطب والتطبيب في عسير وجازان، انظر: غيثان بن جريس، عسير (١١٠٠.١٤٠٠هـ)، ص ١٠٨-١١٧، للمؤلف نفسه، أيها حاضرة عسير، ص ٣٩٢-٤٠٤ .
- (٥) لقد أشرفنا على أكثر من (٤٠٠) بحث طلابي، وجميعها بحوث تخرج من عام (١٤٢٣.١٤١٢هـ / ٢٠٠٢.١٩٩١م)، ونسخ من تلك البحوث توجد ضمن مكتبة الباحث تحت أرقام تسلسلية، وكل بحث لا يخلو من جديد كالثائق والصور ومادة علمية وغيرها، و (٩٨٪) من هذه الدراسات تتعلق بتاريخ وحضارة وتراث بلاد تهامة والسراة الممتدة من الحجاز شمالاً إلى جازان ونجران جنوباً، وعلى وجه الخصوص في العصر الحديث (ق ١٢.١٤هـ/٢٠.١٨م) .
- (٦) عبد الله بن علي بن سالم العمري من محافظة المخوة، كان أحد طلابنا في بداية العقد الثاني من هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، وتخرج عام (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، وحسب علمنا أنه عمل مدرساً في أبها سنوات عديدة، واشتغل إماماً في مسجد سجن أبها الرئيسي، ثم انتقل إلى مسقط رأسه في مدينة المخوة، ويعمل حالياً في مجال التربية والتعليم هناك، ولا أعلم ما مصيره الآن، إلا أنه من سكان المخوة ومن قبيلة بني عمر في منطقة الباحة .

أنداك تحت إشرافنا عام (١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، والموسوم ب: منطقة الباحة (بلاد بني عمر، وغامد، وزهران) (خلال القرنين ١٤٠١٣هـ / ٢٠١٩م) (دراسة تاريخية حضارية)^(١). وفي عشر صفحات من دراسته أورد عنواناً سماه (الصحة واستخدام البيئة في الطب)^(٢). ثم دون تفصيلات كثيرة، لكننا نذكرها هنا بتصرف بعد تهذيبها وتشذيبها، وأحياناً صقل أسلوبها، فنقول: بعض النباتات المستخدمة في علاج عدد من الأمراض مثل: التوابل التي تركز عليها آلاف الوصفات الطبية، كالزبرة، والكمون، والقرفة، والشيح، (البابونج)، والمصطكى، والحبّة السوداء، واللبن، والهيل، والنعناع، وتدخل الزهور كعناصر علاجية في بعض الوصفات كالنرجس، والورد، والحناء^(٣). ومن الفواكه السفرجل، والمشمش، والليمون، والخوخ، والرمان، والتين، والعنب، والتبوق، والتوت، وهناك مجموعة أخرى من الحبوب مثل القمح، والزيوت بأنواعها، والزيتون، والجوز، واللوز، والبصل، والعدس، والقثاء، والسمن، والرجلة، والجرجير، والخس، والثوم، والجزر، والفجل، والحمص، والشعير، والتمر، والبرسيم، والملح، والقطران، واليانسون، والخل، وعسل النحل، والسنا^(٤).

والحيوانات وأعضاؤها وفضلاتها تدخل في خدمة الطب والتطبيب، ولا يتسع المجال للحديث عن كل عنصر من هذه العناصر واستخداماته الطبية، ولكن نقتصر على بعض النماذج التي عرفها ومارسها سكان منطقة الباحة مثل الكحل فليس للتجميل فقط وإنما لعلاج بعض أمراض العين وجلاء البصر، ويستخدم العسل في كثير من الأمراض العضوية التي يصاب بها الإنسان، وقد ورد ذكره في القرآن في قوله تعالى: (فيه شفاء للناس)^(٥)

(*) والكي بالنار من أبرز أساليب العلاج الطبي بعد الوصفات التقليدية الأخرى، ولا يشك أحد في مدى صعوبته وخطورته وما يتطلبه من تحمل، فهو كما يقال (آخر الدواء الكي)، ولا يلجأ إليه المريض ولا المحيطون به إلا بعد أن تعيهم الحيل وتسد أمامهم كل الأبواب للعلاج، ويستخدم الكي لعلاج أمراض الرأس، والمعده، وألم الظهر، وعرق النساء، والروماتيزم، وليس كل إنسان يستطيع ممارسة الكي، وإنما هناك رجال ونساء معروفون

(١) البحث يقع في (٢٨٥) صفحة عالج فيها الكثير من القضايا التاريخية لمنطقة الباحة خلال القرنين (١٤٠١٣هـ / ٢٠١٩م)، كما يحتوي على وثائق وصور جديدة في بابها. والطلاب محمد درويش الغشام الغامدي ومزلاء آخرين أنجزوا بحثاً عن المخواة خلال القرن (١٤٠١٣هـ / ٢٠١٩م) في عام (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، وقد استفادوا كثيراً من بحث عبد الله علي سالم العمري.

(٢) انظر بحث عبد الله العمري، ص ١١٩-١٢٨.

(٣) منطقة تهامة والسراة مليئة بالكثير من النبات والزهور والشجيرات الأنف ذكرها أعلاه.

(٤) يجب على جامعات الملك خالد والباحة وجازان أن تنشئ كليات للزراعة حتى تدرس الأوضاع الزراعية في هذه البلاد، كما أن كليات الصيدلة عليها مسؤولية دراسة الكثير من النباتات والأشجار في بلاد تهامة والسراة والاستفادة منها في الأدوية والعقاقير الطبية.

(٥) سورة النحل، الآية (٦٩).

في بعض القرى بالمنطقة، فهم مشهورون بحسن التصرف، ومعرفة مواضع الكي، وأوقاته، والأدوات المستخدمة فيه^(١) ونشير إلى بعض الأمراض وطرق علاجها مثل: (١) الواهنة : ألم يصاب به الإنسان في مفصل الكتف ويعالج بالكي في الكتف. (٢) الشوكة : وتحدث غالباً عند الأطفال حيث تبدأ بكحة شديدة ومستمرة وتسبب هزاً شديداً للجسم ويعالج بالكي في الصدر. (٣) الملحة : ألم يصيب الإنسان في الركبة ويعالج بالكي فوق الركبة. (٤) الشقيقة : وهي ألم في الرأس يسببه عرق في الجبهة ذو لون أخضر مما يسبب ألماً ودواراً وصداعاً بالرأس . ويعالج بإحدى طريقتين : (أ) توضع عليه قطعة من القماش ثم يقوم أحد الحضور بعض ذلك العرق، وفي هذه المسألة يدمن عليها المريض ويأتيه الصداع من حين لآخر. (ب) تكوي الجبهة أو في وسط الرأس فتكون سبباً للشفاء (بإذن الله) (٥) الرياح (المغص) : يعالج بتناول بعض المشروبات مثل شراب السنوت المغلي أو الحلبة المغلية^(٢). (٦) العماش (الرمد) : وهو مرض يصيب العين، ويتسبب في إقفالها حيث تظهر مقفلة بعد القيام من النوم بسبب إفرازات تخرج منها تشبه إلى حد ما الصمغ، وقد يستخدم الماء الدافئ، والبعض يستخدم البول لغسل العين. (٧) الظفار: مرض يصيب العين داخل الجفن ويعالج بفركه بورق الحماط (التين) الخشن حتى يدمي الجفن من الداخل. (٨) اللقوة (اللوف) : وهو التفاف في الفك عند الإنسان أشبه ما يكون بالشدق ويعالج بطريقتين (أ) : شده وربطه بجبارة خاصة كالسكر لمدة معينة حتى يعود إلى وضعه الطبيعي. (ب) : يعالج بالكي في أسفل الفك أو في وسط الرأس. (٩) البداة أو الأبددة (اللشمانيا) : مرض يحدث للإنسان وخاصة في الوجه ويعالج بعدة طرق: (أ) يكوي في الرأس فيشفى (بإذن الله). (ب) : يفرك بالملح الصخري حتى يدمي ويذهب ما بداخله من الأوساخ. (ج) : تستخدم الحرباء حيث تسلط على البداة فتمصها حتى يخرج ما بداخلها من دم وصيد عند ذلك يشفى المريض أما الحرباء فتموت حالاً. (١٠) المشع: مرض يشبه الانزلاق الغضروفي في العمود الفقري ويعالج بجبارة خاصة تثبت العمود الفقري حيث لا ينثني مع حركة الجسم. (١١) الخضع (العنك) : وهو ألم يحصل في مفصل القدم أو اليد غالباً إما لسقوط مفاجئ في حفرة أو اختلال في حركة الجسم أثناء المشي أو ما أشبه ذلك. ويعالج بطريقتين : (أ) بالكي في موضع الألم أو قريباً منه .

(١) شاهدنا بعض الممارسين لعملية الكي في عسير وجازان ونواح من الباحة خلال العشرين سنة الماضية، وكان أغلبهم موفقين في علاج كثير من الأمراض، كما شاهدنا بعض آبائنا وأجدادنا، وهم غير خبراء في عملية الكي، يقومون بكي بعض أبنائهم أو أقاربهم إذا حلت بهم بعض الأمراض التي تحتاج إلى كي في عرفهم آنذاك .

(٢) دراسة مثل هذه الأمراض وطرق علاجها قديماً موضوع جيد ويستحق أن يجري حولها بعض الدراسات التاريخية الموثقة .

(ب) يعالج في بعض الأماكن باستخدام التربة السبخة^(١) حيث تسخن في ماء إلى درجة حرارة يطبقها الجسم ثم توضع على محل الإصابة لتساعد في امتصاص الورم وتخفيف الألم ثم يربط محل الخفق حتى يشفى. (١٢) الفتاق: ألم يصيب الإنسان في البطن بسبب تمزق في العضلات نتيجة لحمل بعض الأثقال مما يؤدي إلى بروز بعض الأجزاء الداخلية للبطن بحيث تظهر وكأنها ورم في بطن الإنسان، وتعالج بالشد للداخل حتى تلتئم أنسجة الجلد وتعود إلى طبيعتها^(٢). (١٣) أبو غيب (أبو لحي): انتفاخ في الرقبة يشبه التهاب اللوزتين حالياً ويعالج بتكميده بقطعة قماش ساخنة ونحوها. (١٤) الجير (الكدّاد): وهو مرض الحموضة حالياً، ويعالج بالعسل، والبعض الآخر يستخدم الرماد حيث يسف الرماد ليخفف من ألمها. (١٥) المسيكية: (الزائدة الدودية): يتم شرب بعض المشروبات لتخفيف ألمها وفي الغالب يتوفى من يصيبه هذا المرض. (١٦) عرق النسا: وهو عرق يمتد من مفصل الورك إلى الكعب، ويمتد من خلف الفخذ وتضعف معه الرجل والفخذ، ويعالج بالفصد من بين أصابع القدم، وكذا يعالج بالحجامة على ظهر القدم والكي أحياناً، وهو يصيب الرجال والنساء على حد سواء. (١٧) آلام الضرس: وهي آلام ناتجة عن التسوس أو الالتهابات وما شابهها فيعالج بعدة طرق (أ) توضع مرارة الذبيحة عليه لتخفيف الألم. (ب) يعالج باستخدام الملح ووضعه على محل الألم ليساعد على تخفيفه. (ج) يكوى بسلك ساخن أو مسمار. (د) يلجأ البعض لاستخدام الدخان الأخضر لأن فيه مادة مخدرة تخدر الألم، ولكن قد يدمن الإنسان على هذا الدخان بعد فترة من استعماله، وهناك عدد كثير من الآلام التي كان يصاب بها الإنسان ولكن لا يتسع المجال لحصرها.

أما الأمراض التي تصيب الحيوانات وطرق علاجها فهي: (١) الحمّة: مرض يصيب الغنم (الماعز) في الفم وهو على هيئة جروح، ويعالج بالكي في مؤخرة الأنف. (٢) الدورة (الصرع): مرض يصيب الضأن ويسبب لها دوارة بحيث لا تستطيع الوقوف على أرجلها، وأحياناً يتسبب في موتها، وتعالج بالكي في وسط الرأس بشكل طولي. (٣) الرامي: مرض يصيب الماعز والضأن في هيئة إسهال ويعالج بإحدى طريقتين: (أ) تكوى في الرأس طولاً وعرضاً بشكل صليب. (ب) يلجأ بعض الرعاة إلى الرمي ببندق أبي فتيل أو قبسون بعد حشوها بالبارود وذلك في الصباح الباكر حيث يرمي وسط المراح (شبك الغنم) فتشم الغنم رائحة البارود فتشفى (بإذن الله)^(٣). (٤) الحرباء (الحرّة): مرض يصيب البقر

(١) السبخة: نوع من التربة سوداء شديدة الملوحة.

(٢) لدى القدماء الفطنة وحسن التدبير، فتراهم يتكيفون مع بيئاتهم ويسخرونها في خدمتهم، وليس ذلك في مجال التطبيق فقط، ولكن في جميع أمور حياتهم السياسية والحضارية.

(٣) الدارس أحوال العرب من قبل الإسلام وعبر عصور التاريخ الإسلامي يجدهم يبذلون قصارى جهودهم للاستفادة من بيئاتهم في كل ما يعود عليهم بالنفع والفائدة.

ويتسبب في سيلان لعابها، ويتمركز في فمها، ويتسبب أحياناً في موتها، ويعالج بأن تكتف البقرة وتلقى على الأرض ثم يفتح فمها ويشد لسانها ثم تستخدم أداة حادة كالإبرة مثلاً في نقر عرق أخضر من آخر اللسان حتى يظهر الدم ثم يدلك بالملح وتشفى بعد أيام قليلة (بإذن الله) . (٥) الهيام (الهياج): مرض يصيب الإبل فتهم في الأرض على وجوهها، وتسير بدون توقف وتكثر من شرب الماء، ويعتقد أن الإبل التي ترعى شجر المض والقرض يكون لديها مناعة ضد هذا المرض. (٦) أبوكتيف : مرض يصيب الغنم والإبل والبقر ويتسبب في تساقط الشعر . (٧) الجرب: وتصاب الغنم والإبل ويعالج بطلائها بالمهل (القطران) . (٨) القطبة: تصيب الضأن في السبلة (الذيل) فيظهر مكانها بقع حمراء أشبه ما تكون بالجدري وتعالج أيضاً باستخدام القطران .

(*) **الحجامة** : من الطرق التي يتم بها العلاج لقوله (ﷺ): الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار . وأنا أنهى أمتي عن الكي^(١)، وقد ورد في الأثر عن النبي (ﷺ) أنه احتجم وأعطى الحجام أجره، وفي الصحيحين عن حميد الطويل عن أنس: أن رسول الله (ﷺ): " حجه أبو طيبة: فأمر له بصاعين من طعام، وكلم مواليه: فخفضوا^(٢) عنه من ضريبته .

وقت الحجامة فعن أنس قال: " كان الرسول (ﷺ) يحتجم لسبعة عشر، وتسعة عشر، وفي إحدى وعشرين، وتكون في الصباح الباكر لما ورد في الأثر " الحجامة على الريق دواء " وعلى الشبع داء، وفي سبعة عشر من الشهر شفاء " أما اليوم الذي تستحب فيه الحجامة فهو يوم الاثنين لحديث نافع قال: قال لي عبد الله بن عمر " تبغ بي الدم فابغ لي حجاماً، ولا يكن صبياً، ولا شيخاً كبيراً . فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: الحجامة تزيد الحافظ حفظاً، والعاقل عقلاً، فاحتجموا على اسم الله تعالى، ولا تحتجموا الخميس والجمعة والسبت والأحد . واحتجموا الاثنين . وما كان من جذام ولا برص، إلا نزل يوم الأربعاء " .

أما كيفية الحجامة فلها أناس يشتهرون بها في كل منطقة، ويستخدمون قرون البقر للحجامة وتكون كما يلي: . يقوم الحجام بتحديد موضع الحجامة ثم يحلق الشعر إن وجد، وبعد ذلك يضع المحجم على الموضع ويمصه مصاً حتى يلتصق المحجم بالجلد، ثم يسد فتحة المحجم بطين أو لبان حسبما توفر، ويترك المحجم على ذلك الحال فترة تتراوح بين عشر دقائق إلى عشرين دقيقة، ثم يفك المحجم فيجد مكان المحجم وقد تجمع

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه .

(٢) خفضوا عنه: خفضوا عنه بعض الشيء من الضرائب المطلوبة منه.

به دم شديد الزرقة، ثم يقوم بتشريط ذلك المحل بالموس بضع خطوات، ثم يقوم بمتابعة المص حيث يتوالى خروج ذلك الدم الفاسد، وعند ذلك تكون الحجامة قد انتهت عند هذه الحد، وتنتشر في صفوف كبار السن بمنطقة الباحة، فتجدهم يحتجمون بين فترة وأخرى حسب ما اعتادوا عليه، ولم يكن الحجام قريباً من كل واحد بل يذهبون إليه من مكان لآخر للاحتجام، وغالباً يقوم بها العبيد^(١).

(* الجروح : تدفع الحاجة الإنسان إلى استخدام موارد البيئة بشتى أنواعها، فالإنسان يعمل في الزراعة والبناء والتجارة والرعي وقطع الأخشاب وغيرها، ومن ثم فهي أعمال شاقة ويتعامل مع آلات حادة مما يجعله عرضة للإصابة بأنواع مختلفة من الإصابات بين حين وآخر، وكان على الإنسان أن يفكر في وسائل وطرق علاجية إذا وقع له بعض الإصابات، فبدأ يبحث ويجرب بعض الأشجار مثل: (١) العثرب : وهي شجيرة برية تجفف أوراقها ثم تدق ويضمدها بها الجرح. (٢) البدأ: نبتة حولية صغيرة يستفاد من السائل الذي يستخرج منها كمطهر للجروح. (٣) الثفا أو حب الرشاد (الحلف): يستخدم لعلاج الجروح فيدق ويعجن ويضمده به على الجرح فيقتل الميكروبات ويساعد على الشئام الجرح، ويستخدم للكسور في العظام. (٤) الغرب: نوع من الشجر البري توضع أخشابه بعد قطعها في أفران ثم توقد عليها النار حتى يخرج منها مادة سوداء تعرف بـ (القطران)، يستخدم لعدد من الأمراض التي تصيب الحيوانات مثل الجرب. (٥) الدبيل : وهونبات بري ينتشر في الأودية ويستفاد من ثماره فتوضع على الجرح ثم تربط لوقف النزيف . (٦) الرين: وهونبات ينتشر في الأودية ويستفاد من أوراقه في وقف النزيف من الجروح، وهناك الكثير من الأشجار والنباتات التي تستخدم لعلاج الجروح، وأحياناً يستخدم بيت العنكبوت فيوضع على الجروح فيساعده على الالتئام .

(*) السموم تكمن فيما يتناوله الإنسان من مواد سامة، وقد تتسبب في الوفاة، وأيضاً لدغ الزواحف مثل الحية، والثعبان، والعقرب . والإنسان إذا أكل نباتاً أو شرب شراباً ساماً سواءً عن طريق الخطأ، أو عن غير علم كالأطفال فإنه يعالج بعدة طرق أهمها: الاستفراغ، حيث يدفع نفسه ويساعده الحاضرون على إخراج ما في معدته من مواد سامة، وربما يسقى بعض المشروبات مثل الحليب ليتمكن من مقاومة ذلك السم، وفي أكثر الأوقات كان المريض يقضي عدة أيام في الفراش وقد ينجو وربما يموت .

(١) أصبحت الحجامة تمارس اليوم في المستشفيات والمراكز الصحية، وبطرق أنظف وأجود مما كانت عليه عند الأوائل .

أما الشخص الذي يتعرض للدغات حشرات أو زواحف سامة فيعطى البصل والثوم للأكل، وقد يفرك مكان اللدغة بهذه المواد اعتقاداً بأنها تبطل أثر السم، وتتقسم اللدغات إلى عدة أقسام هي: (١) لدغة الحية : والحية من الزواحف الخطيرة، وأحياناً يتعرض لها الإنسان ليلاً في أثناء سيره على الأقدام، حيث تخرج عندما تحس بالبرودة والظلام للبحث عن قوتها فتهاجمه عند إحساسها بالخطر، وربما تعرض للدغتها نهاراً في أثناء مزاولته الأعمال مثل البناء والحفر والحصاد، لأنها تكون في مرحلة سبات في أثناء النهار، وعندما تحس بالخطر قريباً منها تقوم بمهاجمة من يقترب منها، وتقرز السم في جسده، وفي هذه الحالة يعالج المريض بعدة طرق: (أ) يستخدم نبات (الفاقة) وهو نبات أخضر وصغير ينبت في الأودية ويقطف ويدق ثم يخلط حتى يظهر منه جفال (جفاء)، ويشرخ مكان اللسعة ثم يوضع عليها فيشفى (بإذن الله)، وفي كثير من الحالات يستخدمون حليب الإبل كشراب للملدوغ . (ب) يلجأ البعض إلى استخدام نبات الشذاب فيدق ويوضع على صاج ساخن ثم يشرخ مكان اللسعة ويبخر بيخار ذلك الشذاب، وكذلك نبات الطباق. (ج) يذبح البعض منهم شاة حال اللدغ ويفرغ كرش الذبيحة ثم يربط الكرش على المكان الملدوغ، وفي كل الحالات السابقة يقوم جماعة المريض بمسامرته ومساهرته ثلاثة أو أربعة أيام، ويمنعوه من النوم خشية أن يحلم بها، ففي اعتقادهم أن الملدوغ إذا رآها في المنام تعود عليه مرة أخرى فينتشر السم في جسده مما يؤدي بحياته، والطرق العلاجية السابقة تستخدم في لدغات الأفعى والحية والثعابين.

(٢) لسعة الأسود : وهو يشبه الحية في الطول والظروف المعيشية، إلا أنه يتميز باللون الأسود البراق والجسم النحيل الذي قد لا يزيد سمكه عن سمك قلم الرصاص، ويتميز بسرعة وخفة الحركة، فيقال أنه يلسع من ثلاثة أماكن وهي الفم والبطن (السرة) والذنب (الذيل)، ويرى البعض أنه يطير ويلتف حول نفسه كسلك الزنبرك، ثم يقفز لمسافات طويلة، واشتهر هذا النوع بقوة لسعته وقوة السم الذي ينفثه في الملدوغ، والمريض إذا مضى عليه عدد من الساعات ملدوغاً ولم يفارق الحياة فإن له أمل في الحياة (بإذن الله)، وغالباً يفارق المصاب الحياة بعد اللدغة بوقت قصير، ومن المعتقدات الشائعة في المنطقة أن الأسود إذا قتل لا بد من حرقه لأنهم يقولون إذا لمع البرق في السماء فإنه يحيا مرة أخرى . (٣) لسعة العقرب : وهي الوحيدة التي تهاجم الإنسان حيثما كان، وتلدغ من الفم أو من الذنب (الذيل) ولكن لسعة الذيل أشد من لسعة الفم، والعقارب على نوعين : الذكر: ويتميز بظهره الأسود وهو أشد لسعاً من الأنثى، والأنثى وهي أكبر حجماً من الذكر وتتميز بظهرها الأصفر وهي أقل خطورة من الذكر. ولعلاج لسعات العقارب عدة طرق: (١) يؤكل الثوم والبصل بكثرة ويشرخ مكان اللسعة ثم يفرك بالثوم والبصل . (٢) يقوم

البعض بكى المريض كية في الرأس. (٣) يشرخ مكان اللسعة ويمص السم حتى يخرج. (٤) كان بعض الناس يجمعون عددا من العقارب ويضعونها في قارورة بها زيت، فتبقى بها عدة أشهر، فإذا لسع أحدهم بعقرب قاموا بشرخ مكان اللسعة ووضع شيء من ذلك الزيت على اللسعة، ويسقى المريض في جميع الحالات السابقة مرق الدجاج المذبوح حديثاً، وقد يتعرض البعض لعرض الكلاب والذئب وغيرها من الحيوانات المفترسة، وتعالج مثل هذه الإصابات بحشو الرصاص في المكان المعضوض.

(*) الكسور: الحياة القاسية والظروف الصعبة التي مر بها الإنسان قديماً كان لها الأثر في حياته، فكما أنه يؤثر في البيئة فهو يتأثر بتلك البيئة، وما فيها من إيجابيات وسلبيات ترتبط ارتباطاً وثيقاً ومباشراً بحياته، فالتأثيرات الإيجابية للبيئة على الإنسان هي تلك الفوائد التي يجنيها ويسير بها أمور حياته، ومن التأثيرات السلبية في حياة الإنسان الكسور وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنوعية العمل الذي يمارسه الإنسان، وأحياناً تكون عارضة بسبب ما قد يفتأ الإنسان من حوادث أياً كان نوعها، والإنسان والحيوان معرضان للكسور، وكان على الإنسان اكتشاف طريقة لمعالجة هذه الكسور عند حدوثها، فاكشف طريقة التجبير أو الجبارة: وهي فن مشهور له أهله فني كل ناحية نجد أناساً يعدون على الأصابع ممن يجيدون هذا الفن، وقد يتم البحث عنهم في عدد من القرى فلا يوجد منهم سوى واحد أو اثنين، ويكون المجبر أكثر شهرة من غيره، وذلك بسبب مهارته وتجربته في هذا الفن، ومن الخبراء في التجبير بالسراة: صالح بن محسن بدار الجبل بالباحة، وسعيد بن جيلان الجبلي، والمرحوم ابن صالح من الظفير، ومن المدان حامد بن عطاره (رحمه الله) ومحمد بن جلمود، وفي تهامة الباحة محمد بن أحمد من السند، ولايف العقيلي من الخريق، وحوتان بن أحمد الغامدي من شدا الأسفل، وعلي بن عبد الله وغيرهم ممن لهم الصيت الذائع في هذا المجال^(١).

أما طريقة التجبير فإنه يُشد العضو المكسور حتى يرجع العظم كما كان قبل الكسر، ثم يدلك بالسمن البلدي الدافئ، أو بشحم النمر، ثم يلف عليه بخرقه من القماش تحافظ على الجلد من أثر الجبارة، وبعد ذلك تكون الجبارة جاهزة وهي صفائح من خشب مثل السدر، أو السيال، أو العرعر، والقرض فتقص بما يناسب العضو المكسور من حيث الطول والسمك، ثم توضع وتربط بالقماش لكي تحافظ على استقامته ريثما يجبر، وتبقى تلك الجبارة مدة أسبوع أو أسبوعين، ثم تنك، ويتم تعاهد ذلك العضو من حين لآخر فتفك

(١) الكسور وطرق تجبيرها قديماً من الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة. وكذلك الأعلام الذين عملوا في تجبير الكسور في الباحة والقنفذة وجازان وعسير ونجران خلال القرن (١٤هـ/٢٠م) موضوع أيضاً جديد في بابهِ ويستحق الدراسة العلمية.

الجبارة ويدهن العضو بالسمن أو شحم النمر الدافئ، ثم تعاد مرة أخرى حتى يتم التأكد من أن الكسر قد جبر تماماً، وبنفس الطريقة يجبر الحيوان المكسور مع اختلاف بسيط في الجبائر والمواد المستعملة للتجبير.

رابعاً: آراء وتوصيات :

ما تم طرحه في هذا القسم يعد مجالاً واسعاً شمل محاور سياسية وحضارية كثيرة، وإذا أخضعنا التفاصيل المدونة للمعايير العلمية الأكاديمية فقد نجد ثغرات وسلبات عديدة، ومن أهمها طول المدة الزمنية المعنية في هذه الصفحات، ثم الاختصار وأحياناً السطحية فيما درس، وغيرها من الهنات المتنوعة، ولا ندعي الكمال، أو الإبداع، أو التميز فهذه مواصفات كبيرة، ومن رغب في الاتصاف بها أو ببعضها فلا بد أن يتحمل مسؤولياتها ونتائجها. وعادتي دائماً منذ ثلاثة عقود السعي إلى الإسهام ببعض الشيء في مجال البحث والدراسات العلمية، فإذا أصبت فهذا من فضل الله وإذا أخطأت فمن نفسي والشيطان.

وأقول ومازلت أؤكد القول أن منطقة الباحة من البلاد التهامية والسروية العريقة في أنسابها الماجدة في تاريخها وحضارتها، لكنها للأسف لم تُخدم علمياً وبحثياً على مر التاريخ، وإن ظهر من أبنائها من عمل ودرس وأنتج فمما زال في أعمالهم خلل وقصور كبير، وكل باحث درس بلاد غامد وزهران من أهلها أو من غيرهم فهم مشكورون على ما قدموا، لكن هناك عدد من النصائح التي أسديها لنفسي، وكل من سخر قلمه في البحث والتدوين وبخاصة في علم التاريخ والتراث وغيره .

١. أن يستشعر كل واحد منا أن كل ما يعمل ويكتب ويقدم سوف يكون حجة له أو عليه، وبما أننا زائلون من هذه الدنيا الفانية فالفوز في الدنيا والآخرة هو أن نقدم بحوثاً وأعمالاً علمية تكون (بإذن الله عز وجل) حجة لنا في الدنيا والآخرة.

٢. من خلال اطلاعي على بعض الأعمال العلمية والكتابية والتاريخية وعلم الأنساب التي صدرت خلال الخمسين عاماً الماضية عن عموم منطقة الباحة يتخللها الكثير من العيوب، ومن أكثرها العنصرية والتعصب المقيت، وهذا العلم يحتاج إلى تفاصيل كثيرة مع ذكر الأدلة والبراهين، وليس هذا مجاله، لكن أمل من كل عامل يعمل ويؤلف أن يتجرد من هذه الصفة النتنة^(١)، والتفكير على

(١) الدارس تاريخ الأمم والحضارات في أي زمان ومكان عبر عصور التاريخ يجد أن العنصرية أو العصبية الفردية أو الجماعية لعبت دوراً كبيراً في قيام أقوام أو حضارات وسقوط أخرى. وقد قرأنا في كثير من كتب التراث الإسلامي بأن عامل العصبية كان ذا أثر كبير في سقوط دول إسلامية في المشرق والمغرب، ومن أمثلة ذلك بنو أمية في الشام أو الأندلس، وبنو العباس، والفاطميون وغيرهم .

نطاق ضيق، كأن يسعى فلان فيكتب عن أسرته، أو قريته، أو بلدته، أو أمجاد عشيرة أو قبيلة، أو فئة ما، وهكذا، فنقول إننا والله في البلاد العربية وبخاصة في الجزيرة العربية لم نصل إلى الترف الفكري والعلمي والبحثي الراقي أو الشامل أو الدقيق حتى نشغل أنفسنا ونخرج كتباً في مئات الصفحات عن قرية أو ناحية محدودة في تاريخها وتراثها وحضارتها، ولا نقصد في هذا القول التحقير من أحد ولا من عمله، وهذا المرض الثقافي الذي لاحظناه في منطقة الباحة نجده في عسير، وجازان، ونجران، والطائف، والأحساء، والجوف، وتبوك، وكل أنحاء ومدن وحواضر المملكة العربية السعودية^(١). إننا معشر المؤرخين والباحثين والأكاديميين نريد أعمالاً علمية تخدم العلم، ويكون العلم للعمل فقط، حتى لو أصدرنا أعمالاً يشوبها النقص أو الخطأ غير المقصود.

٣. أن نادي الباحة الأدبي، وإمارة وجامعة ومؤسسات منطقة الباحة العلمية والإدارية والثقافية يجب أن تعمل وتتضافر جهودها في خدمة البحث العلمي والأدبي والفكري والتاريخي والحضاري، وتكون هذه الخدمة، أو الخدمات مبنية على أسس رئيسية في خدمة الدين والأمة العربية الإسلامية .

٤. موضوعات ومشاريع البحوث التاريخية والأثرية والحضارية الخاصة بمنطقة الباحة كثيرة جداً، وقد أشرنا إلى بعضها في عدد من بحوثنا ودراستنا، ولكن يجب العلم أن هذا الوطن (الباحة) يستحق الكثير من أهله ومن أبنائه كل حسب مقدراته وتخصصه وعطائه (والله من وراء القصد)^(٢).

(١) في الأعوام الثلاثين الماضية اطلعنا على عشرات بل مئات الكتب التاريخية والثقافية لنواح عديدة في المملكة العربية السعودية ووجدنا بعضها هزيلة في مادتها العلمية، والأدهى والأمر من ذلك الفكر والتوجه في إصدارها، فأحياناً تكون ذات مبادئ منحرفة فلا تخدم الدين والأمة والبلاد، أو أنها مليئة بالانحياز أو التعصب لفريق أو فئة أو مكان دون آخر، وهذا ما لا نريده، ونحث كل باحث أو كاتب أو مؤلف أن يتصف بالإنصاف والاعتدال والاتزان وطلب الأجر في كل ما يدون ويكتب (والله من وراء القصد) .

(٢) ليس حديثنا هنا مقصوداً على الدراسات التاريخية فقط، وإنما البحث في شتى العلوم كل في مجال تخصصه وما يعرف، ومن فضل الله أن جامعة الباحة يوجد فيها عشرات الأكاديميين في علوم مختلفة، وعليهم واجب تجاه هذه المنطقة الغنية بمواردها الطبيعية، المأهولة بسكانها، العريقة بتاريخها وحضارتها، الجميلة بتميتها وتطورها الحضاري الحالي .